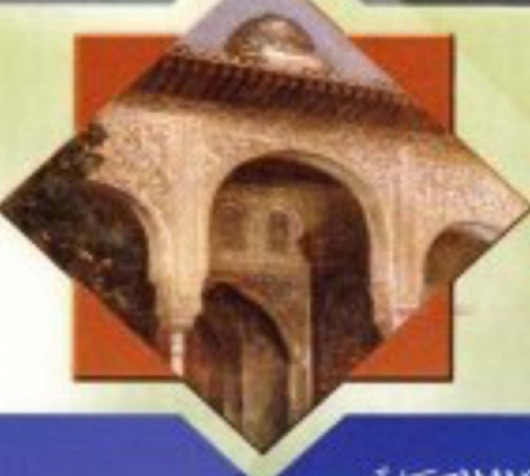


العبادات القلبية
وأثرها في حياة المؤمنين

الدكتور
محمد موسى الشريف



دار التربية
دار ابن كثير

العبادات القلبية
وأثرها في حياة المؤمنين

العبادات القلبية
وأثرها في حياة المؤمنين

الطبعة الخامسة
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

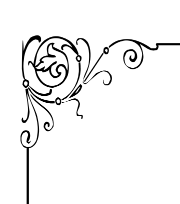
العبادات القلبية

وأثرها

في حياة المؤمنين

الدكتور

محمد موسى الشريف



بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

- إلى والدي الكريمين وفقهما الله تعالى، ورزقني رضاهما وبرهما.
- إلى زوجي العزيزة حفظها الله تعالى.
- إلى أولادي عسى أن يكونوا من الصالحين المفلحين.
- إلى كل عامل على إصلاح قلبه.

المقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم، وغمر بالنعم، ووقانا من النِّقَم، وأنقذنا من الجهالة والكفران، وجعلنا من أمة خير الأنام، محمدٍ عليه أفضل الصلاة والسلام، فتِهنا بذلك على العالمين، وارتفعنا بتلك النسبة المباركة على الإنس والجن أجمعين، فحُق لنا أن نلهج لله ـ تبارك وتعالى ـ بالتسبيح والتقديس، وأن نكون من جنده المخلصين الذين برئوا من وساوس التلبيس والتيئيس، حتى ننعم في عَرَصات القيامة بالأمان، ونتفيأ ظِلَّ عرش الرحمن، ويُنادى علينا: أنتم عباد الله وحزبه الناجون، من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أدخلوا الجنة وتمتعوا بالنظر إلى وجه الجليل، وكونوا في أمان من المخاوف كثيرها والقليل، وتنعموا بمرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وخدمة الحور والولدان المنعمين، والملائكة يدخلون عليكم من كل باب، سلام عليكم فنعمى العقبى والمآب.

فيالها من مشاهد عظيمة، وصور كريمة، ونعم جليلة، وآلاء جسيمة، جعلني الله وإياكم من ملابسيها بحوله وقوته وكرمه، آمين.

أما بعد:

فإن السلف ـ رضي الله تبارك وتعالى عنهم ـ برعوا في معرفة دواء القلوب، حتى ألزموها ـ عن رضا وشوق ـ عبادة المحبوب، وعالجوها

مما بها من الآفات والعيوب، فكانت قلوبهم طاهرة كأعمالهم، صافية صفاء نياتهم، فكتب الله ـ تعالى ـ لهم القبول عند الملائكة والناس، وأنجاهم من وساوس وشرور الوسواس الخنَّاس، ورفعهم جزاء مجاهداتهم القلبية فجعلهم المؤمنين، واختارهم على علم على العالمين.

ولمَّا كنا مأمورين باقتفاء آثارهم الطاهرة، وعباداتهم المباركة، وأعمالهم النافعة، أردت أن أبين حالهم مع قلوبهم، وأهمية أن يكون القلب متوجهاً إلى مولاه، وعقدت مقارنة بين العبادات القلبية وعبادات الجوارح، مريداً بذلك كله إصلاح قلوبنا، حتى يَلين ما لحقها من قسوة، ويَبين ما عكّرها من ذنب ومعصية، والله هو المسؤول بتطهيرها وعلوقها بجلاله، وأن يمنّ علينا بذلك أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

د. محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف



الفصل الأول

الكلام على القلب وعباداته



تمهيد

مكانة العبادات القلبية عند السلف



معنى السلف:

يقال: سَلَفَ الشيءُ: مضى، وسَلَفَ فلان: تقدم.

والسَّلَفَ: كل عمل صالح تقدم، وهو ـ أيضاً ـ كل من تقدم من الآباء والأجداد وذوي القرابة المتقدمين في السن والفضل، ولهذا سمّي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح[(١)].

وحدَّ بعضهم السلف بالقرون الثلاثة الأولى لقول النبي ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...»[(٢)].

وكل من تبع منهج السلف واقتفى آثارهم إلى يومنا هذا فهو منهم.

ولقد شُغِل الناس شغلاً عظيماً بتتبع أقوال السلف العقدية، ومسائلهم الفقهية، وبرعوا في معرفة ذلك كله، ثم إنهم لم يلتفتوا ـ إلا قليلاً ـ إلى صلاح أعمال أسلافهم، وقوة إيمانهم، وعِظَم يقينهم، وأحوالِ قلوبهم، ففسدت من الناس ـ إلا من رحم الله ـ القلوب،

---

(١) (تاج العروس): سلف.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ومن صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه: ٥/ ٢.

وجفّت منهم العيون، فلم يعودوا يتأثرون بالمواعظ، ولا ينتهون عن المناهي، و لا يُقدمون على الأعمال الصالحة إلا قليلاً.

والناظر في سيرة النبي ﷺ في المدينة بعد دخول الناس في الإسلام واستقرار الدين ـ يعلم أن المسائل العقدية كانت قليلة إذا قيست بالوعظ والقصص والآداب والأذكار والأخلاق، وإنما عُني النبي ﷺ بالعقيدة عناية عظيمة في أول دعوته الكافرين بمكة، ثم لما دخل الناس في الدين، وتكونت الدولة في المدينة انصرف النبي ﷺ إلى تربية النفوس بالجهاد والمواعظ والآداب، مع التذكير بمسائل العقيدة حال الحاجة إليها، كما حدث مع الصحابة في الشجرة التي رأوها في حُنين، فعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أنهم خرجوا عن مكة مع رسول الله ﷺ إلى حُنين، قال: وكان للكفّار سِدْرةٌ يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط[1]، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط ـ وفي رواية: كما للكفار ذات أنواط ـ فقال رسول الله ﷺ: قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[2]، إنها السَّنن، لتركُبن سنن من كان قبلكم سُنَّةً سنة ـ وفي رواية ـ فقال النبي ﷺ: الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى...» الحديث[3].

---

(١) اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم أي يعلقون على سبيل التبرك، وانظر «الفتح الرباني»: ١/ ١٩٩.

(٢) سورة الأعراف آية ١٣٨.

(٣) أخرجه الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ انظر المصدر السابق، وقد ذكر الشيخ البنّا ـ رحمه الله تعالى ـ أن سند الحديث جيد.

وكما علم النبي ﷺ الرجل القائل: (ما شاء الله وشئت) فقال له النبي ﷺ: «أجعلتني لله عِدْلاً[١] بل ما شاء الله وحده».

وقال النبي ﷺ للصحابة: «إنكم كنتم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم أن أنهاكم عنها، قال: لا تقولوا ما شاء الله وما شاء محمد».

وقال لهم أيضاً ﷺ: «فقولوا ما شاء الله ثم محمد»[٢].

وكما علم النبي ﷺ الأعرابي الذي قال: «يا رسول الله جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال[٣]، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك.

قال رسول الله ﷺ: ويحك! أتدري ما تقول؟ وسبح رسول الله ﷺ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه[٤]، ثم قال: ويحك! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك! أتدري ما الله. . . » الحديث[٥].

فينبغي إذاً أن يكون هذا الذي يساس به المسلمون اليوم؛ إذ أكثرهم ذوو عقائدَ صحيحة، فينبغي أن ينبهوا إلى الخطأ العقدي إذا ظهر ثم

---

(١) أي شريكاً ومِثْلاً: انظر «المصدر السابق»: ١/ ٣٨.

(٢) أخرج كل هذه الروايات الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ وغيره، وسند هذه الروايات جيد، انظر المصدر السابق.

(٣) أي نقصت: انظر «عون المعبود» ١٣/ ١٢.

(٤) أي تبين أثر تغير وجهه الشريف في وجوه أصحابه لأنهم فهموا من تكرير التسبيح أنه غضب من ذلك فخافوا من غضبه.

(٥) أخرجه الإمام أبو داود في سننه «كتاب السنة» باب في الجهمية، والحديث حسن ـ إن شاء الله ـ وفيه كلام طويل انظر المصدر السابق: ١٣/ ١١ ـ ٣٥.

يُنصرف بهم إلى الوعظ والتذكير، والتربية الجهادية والإيمانية والأخلاقية.

لكن الناظر إلى حال المجتمع لما سيقت إليه المسائل المجردة التي لا يفهم أكثرها، وحيل بينه وبين التربية الصحيحة وأخْذِه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وحالِ السلف الصالح رضي الله عنه، الناظر إلى حاله يعجب كيف نبذ الأوامر وأتى النواهي، ودرج على العصيان، واستسهل الكبائر واعتادها، ذلك لأن المسائل المجردة لا تصلح إلا لأهل العلم وطلبته، أما سائر المجتمع فإنما يسلس قيادهم ودعوتهم بأمر غير هذا، وهذه سيرة النبي ﷺ بين أيدينا تُفصح بأن منهجه الذي ربى به الصحابة في المدينة هو المنهج الصالح للتربية إلى يوم الدين، والله أعلم.

أما إن كان المصلح بين قوم كافرين أو ذوي عقائد زائغة؛ فإن منهج النبي ﷺ في مكة هو المنهج الصحيح؛ الذي يجب أن يساس به أولئك الأقوام، فقد كان أكثر كلامه ﷺ فيها عن التوحيد.

وأما العبادة فهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة[(١)].

وإذا تكلمت عن العبادات القلبية فإنما أعني الأعمال الباطنة المؤثرة على الأعمال والأقوال الظاهرة.



(١) هو تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ وهو تعريف مشهور: انظر «تيسير العزيز الحميد»: ٤٦.

المبحث الأول
تحديد المراد بالقلب

والمقصود من هذا المبحث تحديد العضو المسؤول عن التأثر والاستجابة الشعورية: أهو القلب الذي في الصدر أم الدماغ؟

أما القلب فله معنيان في اللغة:

«أحدهما يدل على خالص شيء وشريفه.

والآخر: على رد شيء من جهة إلى جهة.

الأول: قلب الإنسان وغيره، سمي لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه، وخالص كل شيء وأشرفه قلبه»[١].

والمعنى الأول هو المراد في هذا المبحث.

والقلب سمي كذلك لتقلبه:

ما سمي القلب إلا من تقلبه
والرأي يصرف بالإنسان أطوارا[٢]

وكثر الكلام في كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وحديث رسوله ﷺ، عن القلب، فهل يراد به ذلك العضو اللحميّ الكائن في الصدر، أو يراد به

(١) «معجم مقاييس اللغة»: قلب.
(٢) «لسان العرب»: قلب.

العقل الذي في الدماغ؟ فقد كثرت الأقوال في هذه المسألة.

الذي أراه في هذه المسألة ـ والله تعالى أعلم ـ أن القلب لا هذا ولا ذاك، إنما هو «لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق وثيق»[١]، كما أن لها تعلقاً بالدماغ وإشاراته الحسية والعصبية على نحو لا يعرفه إلا الله تبارك وتعالى.

وإنما قلت ذلك توفيقاً وجمعاً بين ما ورد في الآيات والأحاديث مما يُصرف إلى القلب الحسي الذي في الصدر، وبين كلام بعض الأئمة المفسرين وغيرهم ممن ذهب إلى أن المراد بالقلب في الآيات: العقل الذي في الدماغ، وذهب إلى هذا جمع من العلماء ببدن الإنسان اليوم.

وأورد أولاً الآيات الشريفة والأحاديث الكريمة التي يفهم منها أن المراد بالقلب هو القلب الحسي الذي بين الضلوع، ثم أذكر قول مَن قال بأن العقل في الدماغ.

أولاً: الآيات والأحاديث الدالة على أن المراد بالقلب هو ذلك القلب الحسي الذي في الصدر.

وأورد النصوص على حَسَب قوة دلالتها؛ فأورد أولاً حديثاً قوي الدلالة على هذا الموضوع، بل يكاد يكون نصاً في المسألة:

أـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق من قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمه، ثم أعاده في مكانه»

(١) «التعريفات»: قلب، وهذه اللطيفة ليس شرطاً أنها لا تُرى أو أنها معنوية ليست حسية، بل قد تكون موجودة حقيقة ولم يكتشفها الإنسان بعد، والله أعلم.

الحديث، وقال أنس فيه: «وقد كنت أرى أثر ذلك المِخْيَط في صدره»[(١)]، وهذا الكلام من أنس رضي الله عنه واضح في إرادة القلب الذي في الصدر.

ويذكر عدد من المفسرين هذه القصة في تفسير قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

وأفعال جبريل عليه السلام بقلب النبي ﷺ تنبئ أن القلب الحسي اللحمي به علقة أو (لطيفة) مؤثرة في أفعال الإنسان، وهذه العلقة قد تكون حسية وقد تكون معنوية، وإن كانت حسية فقد تكون متناهية في الصغر بحيث لا ترى بالعين المجردة، والله أعلم.

والطب لم يكتشف أمر هذه العلقة بعد، وعدم الوجدان ليس دليلاً على عدم الوجود.

ب ـ قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[(٢)].

فقوله تعالى ﴿ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ ينفي كل مجاز[(٣)] يمكن أن يلحق بمكان القلب المعنوي، ويلحق الكلام بالحقيقة.

جـ ـ قال النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[(٤)].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان: باب الإسراء برسول الله ﷺ: ٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٢) سورة الحج: آية ٤٦.

(٣) المجاز: استعمال اللفظ في غير ما وضع له أصلاً.

(٤) أخرجه الإمام البخاري: كتاب الإيمان: باب فضل من استبرأ لدينه: ١/ ٢٠.

فقول النبي ﷺ «مضغة» نص في القلب الحسي اللحمي، ونفي للمجاز عنه، وهو لا ينطق عن الهوى ﷺ إن هو إلا وحي يوحى.

قال ابن حجر[(١)] ـ رحمه الله تعالى ـ: «ويستدل به على أن العقل في القلب»[(٢)].

د ـ قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[(٣)].

فلم يقل الله تبارك وتعالى (عقول يفقهون بها) مثلاً، مع اتساق النص بها.

هـ ـ حديث النبي ﷺ عن التقوى، وإشاراته بيده إلى صدره، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا.. التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات..» الحديث[(٤)].

فتلك الأدلة كلها يفهم منها أن المقصود بالقلب القلب الحسي اللحمي، وما فيه من تعلق خفي بأعمال الإنسان وإراداته.

ثانياً: ومما دعاني إلى هذا القول أيضاً أن الطب الحديث لا يعرف منه حتى الآن ـ على وجه اليقين والقطع ـ أين المكان المؤثر على أفعال الإنسان المعنوية وإراداته، وأين مكان الإحساس والشعور

(١) هو شيخ الإسلام أحمد بن علي بن محمد، إمام الحديث في عصره. ولد بمصر سنة ٧٧٣، وجدَّ في الفنون حتى بلغ الغاية، وولي وظائف. توفي سنة ٨٥٢ بالقاهرة. انظر ترجمته في «الضوء اللامع»: ٢/ ٣٦ ـ ٤٠.
(٢) «فتح الباري»: ١/ ٢١١.
(٣) سورة الحج: آية ٤٦.
(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله: ١٦/ ٩٣ ـ ٩٤.

المعنوي، وإنما يعرف المكان المؤثر على الأفعال الحسية، وهو الدماغ، فيمكن إذاً أن يكون للقلب تعلق ما لم يكشف عنه حتى الآن، ويساعد على هذا الإمكان ما أوردته من آيات وأحاديث آنفاً.

ثالثاً: تأثير العقل والقلب معاً: يقوي هذا الرأي أيضاً أنه لما كانت حياة الإنسان الظاهرة متعلقة بالقلب والعقل معاً على نحو ظاهر، فيمكن أن تتعلق إراداته وإحساساته بالقلب والعقل أيضاً، فإن الإنسان لا يمكن له أن يعيش على نحو سوي إلا بسلامة قلبه وعقله، فما المانع أن يكون بين قلبه وعقله تعلق وثيق مؤثر على أفعال الإنسان المعنوية، أو ما نسميه بالعبادات والأمراض القلبية والإحساسات والمشاعر الداخلية، وهذا التعلق لم يعرف بعد، كما أن حقيقة النوم لم تعرف بعد، كما أن حقيقة الرؤى وأسبابها لم تعرف بعد، والله أعلم.

رابعاً: هذا الرأي يوفق بين القائلين بأن العقل في القلب ولا تعلق له بالدماغ، وبين القائلين إن العقل في الدماغ ولا تعلق له بالقلب.

وقد لخص الإمام النووي[١]: ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الأقوال فقال في سياقة شرح حديث «ألا إن في الجسد مضغة»:

«واحتج بهذا الحديث على أن العقل في القلب لا في الرأس، وفيه خلاف مشهور، ومذهب أصحابنا وجماهير المتكلمين أنه في القلب، وقال أبو حنيفة هو في الدماغ، وقد يقال في الرأس، وحكوا الأول أيضا عن الفلاسفة، والثاني عن الأطباء . . .».

---

(١) هو الإمام الكبير الزاهد يحيى بن شرف بن مري الشافعي الحافظ الفقيه. توفي بـ «نوى» من بلاد الشام سنة ٦٧٦. انظر ترجمته في «فوات الوفيات»: ٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٨.

ثم ذكر الإمام النووي بعض حجج القائلين بأن العقل في القلب ـ كما سقت ذلك آنفاً ـ ثم قال: «واحتج القائلون بأنه في الدماغ بأنه إذا فسد الدماغ فسد العقل، ويكون من فساد الدماغ الصرع في زعمهم، ولا حجة لهم في ذلك، لأن الله سبحانه وتعالى أجرى العادة بفساد العقل عند فساد الدماغ، مع أن العقل ليس فيه ولا امتناع من ذلك...»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]، رحمه الله تعالى: «قيل إن العقل في الدماغ ـ كما يقول كثير من الأطباء ـ ونقل ذلك عن الإمام أحمد، ويقول طائفة من أصحابه: أصل العقل في القلب، فإذا كمل انتهى إلى الدماغ، لكن مبدأ الفكر والنظر في الدماغ، ومبدأ الإرادة في القلب، والعقل يراد به العلم، ويراد به العمل، فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة، وأصل الإرادة في القلب، والمريد لا يكون مريداً إلا بعد تصور المراد، فلا بد أن يكون القلب متصوراً فيكون منه هذا وهذا»[٣].

وكلام شيخ الإسلام يستأنس به في هذا المقام.

وقال الإمام ابن كثير[٤]، رحمه الله تعالى، في تفسير قوله سبحانه

(١) انظر «شرح صحيح مسلم»: ١١/ ٢٠٩.
(٢) هو أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم: توفي بدمشق ـ مسجوناً بسبب فتنة ـ سنة ٧٢٨. انظر «الدرر الكامنة»: ١/ ١٥٤ ـ ١٧٠.
(٣) «مجموع الفتاوى»: ٩/ ٣٠٣، وقد نقلت ذلك عن كتاب «القلب ووظائفه في الكتاب والسنة»: ٤٢٠.
(٤) هو إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الشافعي، عماد الدين. ولد سنة ٧٠٠، ونشأ بدمشق، وبها توفي سنة ٧٧٤ بعد أن أضر في آخر عمره. له مصنفات جليلة، واشتغال بالحديث، انظر ترجمته في «الدرر الكامنة»: ١/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

وتعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾(١) الآية «والأفئدة، وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ»(٢).

إذاً يمكن أن يقال جمعاً وتوفيقاً بين ما يفهم من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وبين كلام الأئمة وبين كلام العالمين ببدن الإنسان أن القلب له تعلق وثيق بالإحساس والشعور والاستجابة، وأن ذلك على نحو لا يعلمه إلا الله تعالى، وأن العقل له تعلق أيضاً على كيفية مجهولة حتى لعلماء هذا العصر الحديث، والرابط بين القلب والعقل مجهول حتى الآن.

وإنما قلت ذلك لأن للعقل وظيفة لا تنكر في المعنويات، وينبغي أن يجمع بين القول بتأثيره وتأثير القلب معاً، والله أعلم(٣).

(١) سورة النحل: آية ٧٨.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ٤/ ٥٠٨.

(٣) هناك عدة حوادث ـ لكنها ليست موثقة علمياً، فيما أعلم ـ تتحدث عن تغير بعض الطبائع الإنسانية بانتقال قلوب الآخرين إليها عن طريق الزراعة، وقيل إن تغيراً جرى لطبائع أحد الذين زرع لهم قلب خنزير، فإن صح ذلك علمياً فإنه يكون دليلاً معضداً لما سبق أن سقته.

وهناك أمر يحتاج إلى تفسير علمي وهو زيادة خفقان القلب عند مشاعر الخوف أو الإثارة العاطفية وغيرها، فهل هو تصرف دماغي محض وأمر عصبي إلى القلب، أو هو أمر قلبي دماغي مشترك؟ هذا أمر يحتاج إلى تفسير علمي دقيق، ولا أدري هل عند الأطباء حقائق علمية في هذا الشأن أو لا، والله أعلم.

المبحث الثاني
فضائل القلب وأهميته

للقلب فضائل كثيرة، ومزايا عديدة، وأهمية بالغة موازنة بغيره من الأعضاء، فمن ذلك:

١) القلب مكان تنزل الواردات الإلهية:

النصوص الشرعية حافلة بإظهار شرف القلب وأهميته وعظم تأثيره، وبيان أن الله ـ تعالى ـ يتصرف في قلوب البشر كيف يشاء، فالله ـ تبارك وتعالى ـ يحول بين المرء وقلبه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[١].

والله ـ سبحانه ـ يربط على قلوب المؤمنين فيصبرون: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢].

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

والله ـ تعالى ـ يقذف في قلوب الأعداء الرعب: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنفال: آية ٢٤.

(٢) سورة الكهف: آية ١٤.

(٣) سورة القصص: آية ١٠.

(٤) سورة الحشر: آية ٢.

فهذه الواردات وغيرها دليل على شرف القلب وعظم أهميته.

٢) القلب مناط التكليف:

إذ الإسلام والإيمان والإحسان وما يتبع ذلك كله من عبادات باطنة محله القلب، والقلب محل نظر الله تعالى، فقد أخبر النبي ﷺ أن «الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» وأشار بأصابعه إلى صدره الشريف(١).

٣) القلب المهتدي يكافأ مكافأة عظيمة:

القلب المهتدي فيه أنوار وبصائر يهبها الله من يشاء من عباده، فيكفيه بها كثيراً من البشر، ويهديه إلى خير كثير، وذلك نحو (الإلهام)(٢)، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(٣).

ونحو (التحديث) وهو أن تحدث الملائكة الإنسان، فقد قال النبي ﷺ: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر»(٤).

ونحو (الفراسة)، والرؤى الصالحة، وغير ذلك.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره: ١٦/ ٩٤.

(٢) الإلهام هو «أن يلقي الله في النفس أمراً يبعثه على الفعل أو الترك، وهو نوع من الوحي يخص الله به من يشاء من عباده»: «اللسان» ل هـ م.

(٣) سورة القصص آية: ٧٥.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة: باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ٥/ ١٥.

٤) النوازع القلبية قد تنجي الإنسان وقد ترديه:

قد ينزع في قلب الإنسان نازع شريف فينجو، وقد ينزع فيه نازع فاسد فيهلك، فالقسوة نازع قلبي فاسد، لما ورد في قلب امرأة هلكت، فقد أخبر النبي ﷺ: «أن امرأة من بني إسرائيل دخلت النار في هرة لها ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»(١).

بينما نزع في قلب امرأة أخرى نازع الرحمة فنجت، فقد أخبر النبي ﷺ «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه(٢) من العطش، فنزعت له بموقها(٣)، فغفر لها»(٤).

٥) صلاح القلب صلاح للفرد والمجتمع:

فالقلب الصالح أول لبنة في صلاح المجتمع، إذ صلاح الفرد منوط بصلاح قلبه، قال النبي ﷺ: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(٥).

والصلاح صلاحان: مادي وروحي، أما الصلاح المادي فإنه إن صلح قلب الرجل فإن بدنه سيكون صالحاً لابتعاده عن المسكرات

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الكسوف: باب ما عرض للنبي ﷺ من الجنة والنار: ٦/ ٥١٠. والخشاش هو: الهوام والحشرات، انظر المصدر السابق.

(٢) أي: أخرجه لشدة العطش.

(٣) الموق: هو الخف، انظر التعريفين السابقين في «شرح صحيح مسلم»: ١٤/ ٤٠٢.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب السلام: باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها: ١٤/ ٤٠٢.

(٥) أخرجه الإمام البخاري، وقد سبق تخريجه قريباً.

والمخدرات والفواحش، فإذا صلح بدنه كان لبنة صالحة في رقي الأمة الإسلامية، ونتاجها وبناء حضارتها، وهذا إصلاح مادي كبير.

وأما الصلاح الروحي فإن صلاح القلب يتبعه حسن القيام بحقوق الله تعالى كالصلاة والصيام، وإقامة الجهاد ونشر الدعوة، والأمم إنما تقوم بصلاح القلوب مع صلاح الأبدان.

وأعمال القلوب عبادة تنفرد بها أمة الإسلام، فلو أحسنت في هذه العبادة لاستوت على عرش الحضارة العالمية.

مما سبق يتضح أن القلب ينفرد بمزايا وفضائل عظيمة، فيجب الاعتناء بإصلاحه وتطهيره دوماً، وملاحظته حتى لا يزيغ أو يضل.

المبحث الثالث
قواعد عبودية القلب[(١)]

أعمال القلب تنقسم إلى عبادات واجبة ومستحبة، وأمور محرمة ومكروهة ومباحة، أي أن الأحكام التكليفية الخمسة واردة على القلوب:

فالعبادات الواجبة على القلب نحو: الإخلاص، والتوكل، والخوف، والرجاء، والتوبة[(٢)].

وكل عبادة من هذه لها طرفان: أصل واجب مستحق، وكمال مستحب، وهو درجة المقربين.

ومستحبات العبادات القلبية مثل كمال ما مر آنفاً من العبادات القلبية الواجبة، ونحو الرضا، والخشوع، والشوق إلى الله تبارك وتعالى، والأنس به والإقبال عليه.

أما المحرمات الواردة على القلب فتنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ **الكفر**: نحو الإلحاد، والشرك، والشك.

ب ـ **الكبائر**: نحو الرياء، والعجب، والكبر، والفخر، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح بأذى المسلمين، والشماتة بمصائبهم، والحسد.

---

(١) سقت هذه الفقرة من «تهذيب مدارج السالكين»: ٤٨ ـ ٨٧، بتصرف.

(٢) سيأتي تفصيل الكلام في هذه العبادات القلبية، إن شاء الله تعالى.

ج ـ **الصغائر**: وهي المحرمات التي لا تبلغ أن تكون كبيرة مثل شهوة بعض الذنوب الصغائر وتمنيها.

وأما المكروهات الواردة على القلب فهي اشتغاله عن الله ـ تبارك وتعالى ـ بتعلقه تعلقاً زائداً بأمور الدنيا، وكذلك ما يرد على القلب من خواطر يملك المرء صرفها، وهذه الخواطر تركها خير من التفكير فيها لكن لا عقوبة عليها.

وأما مباح القلب فهو فراغه عن المعاني العلية، وورود الخواطر الدنيوية الشاغلة على قلبه.

ولما كان أمر القلب على هذه الأهمية الكبيرة ـ كما بينت آنفاً ـ فإني أورد المبحث الآتي ليظهر به ـ إن شاء الله تعالى ـ عظم أهمية العبادات القلبية.




المبحث الرابع
وجوه التفاضل بين عبادات القلب وعبادات الجوارح

عبادات الجوارح على غاية عظيمة من الأهمية، وهي أركان الإسلام، ودليل الإيمان، وسلم الإحسان، وهي العلامة الظاهرة الدالة على حسن إسلام المرء، لكن كل ذلك لا يمنع أن تكون العبادات القلبية أعظم شأناً، وأبعد أثراً، وأجمل ممارسة؛ إذ القلب هو الذي يسعد بالقرب من الله تعالى، وهو المطيع له، وإنما المنتشر على الجوارح من العبادات أنواره.

والقلب ـ أيضاً ـ هو العاصي لله، وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره.

وهو محل العلم والتقوى، والحب والبغض، والوساوس والخطرات، وهو العالم بالله، الساعي إليه، وإنما الجوارح أتباع للقلب وخدم له.

والسلف إنما فازوا فوزاً عظيماً، وسبقوا سبقاً بعيداً بإحسانهم العبادات القلبية، وتفردهم في هذا الباب تفرداً لا مثيل له، كما سيأتي توضيح ذلك إن شاء الله تعالى.

وبالموازنة التالية يظهر الفضل العظيم لعبادات القلوب على عبادات الجوارح:

أولاً: اختلال العبادات القلبية هدم لعبادات الجوارح:

وهذا أمر مهم خطير، فاختلال الإخلاص ـ مثلاً ـ قد يؤدي إلى الشرك أو النفاق، وهو هادم لعبادات الجوارح كلها، وليس اختلال عبادات الجوارح بمخرج للإنسان من دينه، على قول جمهور العلماء.

ومن صور هدم عبادات الجوارح باختلال عبادات القلب:

أ ـ اختلال الإخلاص:

وهو أشد الصور وأعظمها؛ وذلك لأنه قد يفضي بالمرء إلى الشرك والنفاق الأكبر، والعياذ بالله تعالى، وسيأتي تفصيل لهذه العبادات القلبية المهمة، إن شاء الله تعالى في الفصل القادم.

ب ـ الكبر:

وهو دال على اختلال عبادة التواضع، وهي عبادة قلبية عظيمة.

وهو مانع من دخول الجنة ابتداءً مهما كان للعبد من أعمال صالحة وحسنات كثيرة، إلا أن يشاء الله تعالى أن يتوب المتكبر، فقد أخبر النبي ﷺ أنه: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كِبر»(١).

جـ ـ الحسد:

وهو دالّ على اختلال حب الخير للمسلمين، وهو عبادة قلبية عظيمة.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان: باب تحريم الكبر: ٢/ ٢٦٨.

والحسد يُذهب حسنات المرء لِما في قلبه من نار دائمة تتأجج على أخيه المسلم، وقد قال المصطفى الأعظم ﷺ: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أو قال العشب»[١].

ثانياً: العبادات القلبية أساس النجاة من النار والفوز بالجنة:

وذلك نحو التوحيد، فهو عبادة قلبية محضة، وقد قال النبي ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم».

قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟

قال: «بلى والذي نفسي بيده! رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[٣].

ومن ذلك ـ أيضاً ـ سلامة الصدر للمسلمين:

وهذه عبادة قلبية قل من يتعبد الله ـ تعالى ـ بها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: «يطلع الآن

---

(١) أخرجه الإمام أبو داود في سننه: كتاب الأدب: باب في الحسد، ورواه بنحوه ابن ماجه في كتاب الزهد: باب الحسد، والحديث من مجموع الطريقين حسن، إن شاء الله تعالى.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الأنبياء: باب قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾ إلى قوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾: ٤/ ٢٠١.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب إحلال الرضوان على أهل الجنة: ١٧/ ٣٠١.

عليكم رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تَنْطُف[١] لحيته من وضوئه. . . فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى».

فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمر فقال: إني لاحَيْتُ أبي[٢] فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلتَ. قال: نعم.

قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعارّ[٣] ـ تقلب على فراشه ـ ذكر الله، عز وجل، وكبّر حتى صلاة الفجر، قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً.

فلما مضت الثلاث الليالي وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله! لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنا ثلاث مرات: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث المرات، فأردت أن آوي إليك فأنظر ما عملك فأقتدي بك، فلم أرك عملت كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟

قال: ما هو إلا ما رأيت.

قال: فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد

---

(١) أي: تقطر.

(٢) أي: خاصمته.

(٣) التعارّ: السهر والتقلب على الفراش ليلاً. انظر «لسان العرب»: ع ر ر، والمراد هنا: انتبه واستيقظ، والله أعلم.

في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه.

فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق»[١].

ثالثاً: نيل المراتب العالية في الجنة إنما هو بالعبادات القلبية:

تضافرت النصوص الشرعية في بيان عظم أجر العبادات القلبية، وعلو مرتبة أصحابها المتعبدين بها في الجنة، بينما لم يكن ذلك لعبادات الجوارح على أهميتها وعظمها، فمن تلك العبادات محبة الله ـ تبارك وتعالى ـ والشوق إليه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والاستعانة به، كل ذلك من أعظم الأمور الموصلة إلى أعلى جنته.

ومن ذلك ـ أيضاً ـ الحب في الله تعالى، وهو عبادة قلبية محضة:

فعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إن لله جلساء يوم القيامة على يمين العرش ـ وكلتا يدي الله يمين ـ على منابر من نور، وجوههم من نور، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ولا صديقين، قيل: يا رسول الله! من هم؟ قال: هم المتحابون بجلال الله تبارك وتعالى»[٢].

ومن ذلك ـ أيضاً ـ الخلق الحسن؛ إذ هو مشتمل على عبادات قلبية كثيرة مثل التواضع، وخلو الصدر من الغل، والظن الحسن، والرحمة، والرفق بالناس، ونحو ذلك كثير.

---

(١) قال الإمام الهيثمي: «رواه أحمد والبزار.. ورجال أحمد رجال الصحيح»: انظر «مجمع الزوائد»: ٨/ ٨١ ـ ٨٢.

(٢) قال الإمام الهيثمي: «رواه الطبراني، ورجاله وثقوا»: انظر «مجمع الزوائد»: ١٠/ ٢٨٠، والحديث مشهور مروي في كتب كثيرة من طرق كثيرة بألفاظ متقاربة.

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:
«ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن»(١).

وقال النبي ﷺ: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»(٢).

ولقد فاز الأنبياء بالدرجات العلى بتميزهم بعبادات القلوب، فإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان عظيم التوكل، وأيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان كثير الصبر، وآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قد تاب توبة عظيمة، وعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان عظيم الزهد، والزهد عبادة قلبية محضة، ونبينا محمد ﷺ قد جمع له هذا كله وغيره من عبادات قلبية على أحسن وأتم صورة فاستحقوا بذلك المراتب العالية والدرجات الرفيعة صلى الله عليهم وسلم تسليماً كثيراً.

رابعاً: العبادات القلبية أشق من عبادات الجوارح:

ولما كانت كذلك فهي أفضل وأعظم من عبادات الجوارح، كما أن فواحش القلوب كالشرك والنفاق أعظم بكثير من فواحش الجوارح.

ولبيان صعوبة بعض العبادات القلبية فإني أورد قولاً لأحد التابعين، وهو يونس بن عبيد(٣) وقد كتب إليه أحد إخوانه يسأله عن

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب الزهد: باب ما جاء في حسن الخلق، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب الزهد: باب ما جاء في معالي الأخلاق، وقال: حديث حسن غريب، والحديث حسن إن شاء الله تعالى. انظر «تحفة الأحوذي»: ٦/ ١٦٠.

(٣) البصري، إمام قدوة، حجة، من صغار التابعين وفضلائهم. انظر «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٣٩.

مسائل، فكتب إليه يونس: «أتاني كتابك تسألني أن أكتب إليك بما أنا عليه، فأخبرك بأني عرضت على نفسي أن تحب للناس ما تحب لها وتكره لهم ما تكره لها، فإذا هي من ذلك بعيدة، ثم عرضت عليها مرة أخرى ترك ذكرهم إلا من خير، فوجدت الصوم في اليوم الحار أيسر عليها من ذلك، هذا أمري يا أخي، والسلام»[(١)].

خامساً: العبادات القلبية أجمل من عبادات الجوارح، وهي مجملة لعبادات الجوارح:

عبادات الجوارح على غاية عظيمة من الأهمية، كما أسلفت، لكن ذلك لا يمنع أن تكون عبادات القلب أجمل وأحلى وقعاً وأثراً وممارسة، وهذا ما يحسه المرء في نفسه إن كان قلبه صالحاً موصولاً بمولاه، جل جلاله.

قال بعض السلف: «مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها.

قالوا: وما أطيب ما فيها؟

قال: محبة الله والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه»[(٢)].

والعبادات القلبية تجمل عبادات الجوارح، فالفرق عظيم بين صلاة بقلب حاضر، وصلاة بقلب غافل لاه، وبين صيام بإخلاص وإقبال واحتساب وبين صيام خال من ذلك، وبين حج بتضرع وانكسار وحج بشموخ واستكبار، وهكذا.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «تهذيب مدارج السالكين»: ٢٤٥.

سادساً: العبادات القلبية أعظم من عبادات الجوارح أجراً وأثراً:

قد كان السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ يفضلون عبادة القلوب على الإكثار من عبادة الجوارح، وهذه بعض أقوالهم في عبادة التفكر في أمر الله تبارك وتعالى والدار الآخرة، وهي عبادة قلبية شريفة:

قال أبو الدرداء[(١)] رضي الله عنه: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»[(٢)].

وقيل لأم الدرداء[(٣)]: أي عبادة أبي الدرداء كانت أكثر؟

قالت: التفكر والاعتبار[(٤)].

ووُصف لسعيد بن المسيب[(٥)] ـ رحمه الله تعالى ـ عبادة قوم أنهم يصلون بعد الظهر إلى العصر، فقال: أما والله ما هي بعبادة، إنما العبادة التفكر في أمر الله، والكف عن محارم الله[(٦)].

وعن يوسف بن أسباط[(٧)] قال: قال لي سفيان بعد العشاء: ناولني المِطْهرة أتوضأ، فناولته فأخذها بيمينه ووضع يساره على خده وبقي

---

(١) هو الصحابي الكبير عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري، توفي بدمشق سنة ٣٢، انظر «نزهة الفضلاء»: ١/ ١٥٧ ـ ١٦١.

(٢) المصدر السابق: ١/ ١٦٠.

(٣) هُجيمة الأوصابية الحميرية الدمشقية، وهي أم الدرداء الصغرى، انظر المصدر السابق: ٣/ ٣٧٠ ـ ٣٧٧.

(٤) المصدر السابق: ١/ ١٦٠.

(٥) عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه. توفي سنة ٩٤. انظر المصدر السابق: ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧٧.

(٦) المصدر السابق: ١/ ٣٧٦.

(٧) الزاهد: من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم. توفي في أواخر القرن الثاني. المصدر السابق: ١/ ٧٠٢.

مفكراً، ونمت ثم قمت وقت الفجر فإذا المطهرة في يده كما هي، فقلت: هذا الفجر قد طلع، فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أفكر في الآخرة حتى الساعة[(١)].

والعبادات القلبية أساس تحصيل الإحسان، وهو أعظم مرتبة في الدين، ومبتغى العالمين، وجهاد الصالحين، وذلك لأن الإحسان بُني على المراقبة، والمراقبة عبادة قلبية صرفة، وقد عرّف النبي ﷺ الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(٢)].

سابعاً: العبادات القلبية محركة ودافعة للجوارح:

إذ كلما عظم الإيمان والتوحيد ومحبة الله في القلب كان ذلك دافعاً الجوارحَ للعبادة، فقد قال عتبة الغلام[(٣)]: «من عرف الله أحبه، ومن أحبه أطاعه»[(٤)].

وهذا أمر مشاهد معلوم، لا حاجة لسوق الأدلة على إثباته، إذ يجد المرء من نفسه أنه إذا صلح قلبه اجتهد في الصلاة والصيام، وإذا فسد قلبه أو ضعف ضعفت عبادته وكلت جوارحه.

ثامناً: العبادات القلبية تضخم عبادات الجوارح:

ومن أمثلة ذلك النية، حيث إن لها مدخلاً عظيماً في ضبط وتكثير عبادات الجوارح، بل تكاد عبادات الجوارح لا تصح بدونها:

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٥٨٤.

(٢) جزء من حديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان: باب سؤال جبريل عن الإيمان والإحسان وعلم الساعة.

(٣) عتبة بن أبان البصري الزاهد الخاشع. استشهد رحمه الله تعالى في غزو الروم. انظر «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٦٤.

(٤) المصدر السابق.

قال الإمام عبد الله بن المبارك[١]: «رب عمل صغير تكثره النية، ورب عمل كثير تصغره النية»[٢].

والنية عمل قلبي صرف لا مدخل للجوارح فيه.

تاسعاً: العبادات القلبية عوض عن عبادة الجوارح أحياناً:

قد تقوم العبادة القلبية مقام عبادات الجوارح في أحوال عينها الشارع، فمن ذلك الجهاد، فقد قال النبي ﷺ: «من مات ولم يَغْزُ ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق»[٣].

فتحديث النفس بالغزو، والعزم عليه، وإضمار نيته قائم مقام الغزو - إن شاء الله تعالى - إن حِيل بين المرء وبين المبادرة إلى الجهاد.

وقال النبي ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[٤].

ومحل الصدق في سؤال الشهادة إنما هو القلب لا غير.

ومن ذلك إنكار المنكر، فقد قال النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»[٥].

---

(١) الزاهد العابد الإمام الحافظ عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي. مات سنة ١٨١. انظر المصدر السابق: ٢/ ٦٥٤ - ٦٦٠.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٦٥٧.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الإمارة: باب ذم من مات ولم يغز: ١٣/ ٥٠.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الإمارة: باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى: ١٣/ ٤٩.

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان: باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ٢/ ٢١٧.

عاشراً: أعمال الجوارح لها حد معلوم، أما أعمال القلوب فلا حد لها، بل تضاعف أضعافاً:

وذلك لأن أعمال الجوارح ـ مهما كثرت وعظمت ـ لها وقت معلوم وحد محدود، أما العبادات القلبية إذا تلبست بقلب المرء واكتسبها العبد فإنها تصير حالاً ملازماً له في صحوه ونومه، وصحته ومرضه، وصفائه وكدره، وفي جميع أموره.

ومثال ذلك محبة الله ـ تبارك وتعالى ـ والرضا عنه، وتعظيمه، والإخلاص له، إن صار ذلك كله حالاً ملابساً ملازماً للعبد فكم يكتسب من حسنات، وكم تتضاعف له الأجور، وذلك ليس لعبادة الجوارح التي تنقطع عن العبد في أكثر أوقات حياته مهما اجتهد، ويكفي انقطاعها حال النوم والوظيفة الدنيوية وقضاء حاجات نفسه وأهله إلخ. . .

حادي عشر: العبادات القلبية يستمر بعضها في أحوال تنقطع فيها عبادات الجوارح أو تقل:

إذ المؤمن مكلف في القبر أن يظهر توحيده ـ والتوحيد عبادة قلبية محضة ـ فيسأله الملكان عن ربه ونبيه ودينه، فيجيب المؤمن أحسن إجابة بينما يعجز المنافق والكافر.

وعبادة القلوب لا تنقطع في الجنة، فإن المؤمن فيها يحب الله تعالى، ويعرفه أحسن المعرفة، ويعظمه، وهذه ونحوها من أعظم العبادات القلبية.

وليس في الجنة من عبادة الجوارح إلا التسبيح باللسان، وهو مسبب عن كمال عظمة الله في قلوب أهل الجنة، وهذه من العبادات

القلبية، قال النبي ﷺ: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، ولكن طعامهم ذلك جشاء كرشح المسك، يلهمون التسبيح والحمد كما تلهمون النفس»[١].

ولا يختلط على المرء العبادة بالتكليف، إذ العبادة أعم منه، فهي ـ كما سبق تعريفها ـ اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهي موجودة في الجنة كما بينت، أما التكليف فمنقطع بالموت، والله أعلم.

مما سبق يظهر بوضوح أن العبادات القلبية تسبق عبادات الجوارح، وتفضلها جمالاً وأثراً ووقعاً على النفس، وهذا الأمر يدعو المرء إلى ضبط قلبه وتعظيم شأنه، والمبادرة إلى علاجه كلما كل أو مل أو زاغ؛ إذ هو الملك على الأعضاء وسيدها ومسيرها، والله أعلم.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب تسبيح أهل الجنة: ١٧/ ٣٠٤.

المبحث الخامس
وسائل حياة القلوب

القلب الحي الذاكر نعمة من الله ـ تبارك وتعالى ـ وصاحب القلب الميت قد مات قبل أوانه؛ إذ ليس في حياته خير أو فائدة.

ومن العوامل التي تحيي القلب:

١) ذكر الله تعالى:

وفائدته معلومة، والذاكر الحاضر القلب لا يفسد قلبه ولا يموت؛ قال النبي ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت»[(١)].

٢) ذكر الموت:

إذ أن ذاكر الموت قصير أمله، كثير عمله، قليلة ذنوبه.

قال سعيد بن جبير[(٢)]، رحمه الله تعالى: «لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يفسد علي قلبي»[(٣)].

٣) زيارة المقابر:

وهي سنة متروكة، قد نسيها أكثر الصالحين بله عامة المسلمين،

---

(١) أخرجه الإمام البخاري: كتاب الدعوات: باب فضل ذكر الله عز وجل.

(٢) هو الإمام الشهيد الحافظ المقرئ المفسر، الكوفي. قتله الحجاج سنة ٩٥. انظر «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣٩٣ ـ ٣٩٦.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٣٩٤.

وهي من أعظم وسائل إحياء القلوب وصلتها بعلام الغيوب، وقد كان السلف يحرصون عليها، فهذا صفوان بن سليم[(١)] كان يأتي البقيع، فرآه أحد الصالحين فتبعه وقال: لأنظرن ما يصنع، قال: فجلس صفوان إلى قبر فلم يزل يبكي حتى رحمته وظننت أنه قبر بعض أهله، ومر بي مرة أخرى فاتبعته، فقعد إلى جنب قبر غيره، ففعل مثل ذلك.

فذكرت ذلك لمحمد بن المنكدر[(٢)]، وقلت: إنما ظننت أنه قبر بعض أهله.

فقال محمد: كلهم أهله وأخوته، إنما هو رجل يحرك قلبه بذكر الأموات كلما عرضت له قسوة[(٣)].

٤) زيارة الصالحين والاطلاع على أعمالهم الصالحة:

وهذا نافع، وإن لم يتيسر فعليه بزيارتهم والاستئذان عليهم في بطون الكتب التي حكت سيرتهم، فهو أمر نافع نافع.

قال جعفر بن سليمان: «كنت إذا وجدت من قلبي قسوة غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع[(٤)]، كان كأنه ثكلى»[(٥)].

---

(١) الإمام الثقة الحافظ الفقيه. مات سنة ١٣٢، عن اثنين وسبعين سنة. انظر المصدر السابق: ١/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

(٢) الإمام الحافظ الثقة. ولد سنة بضع وثلاثين، وتوفي سنة ١٣٠. انظر المصدر السابق: ١/ ٤٩٥ ـ ٤٩٧.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٤٩٨.

(٤) الإمام الرباني القدوة، أبو بكر الأزدي البصري، أحد أعلام السلف التابعين. توفي سنة ١٢٣. انظر «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧.

(٥) المصدر السابق، ١/ ٥٢٦.

وعلى المرء أن يحرس قلبه دائماً لئلا تسري إليه الوساوس والفواحش القلبية كالرياء، والشرك.

قال أبو حفص النيسابوري[(١)]: «حرست قلبي عشرين سنة، ثم حرسني عشرين سنة»[(٢)].

ثم ليحذر المرء من مفسدات القلوب، وتأتي في المبحث القادم، إن شاء الله تعالى.

(١) الإمام القدوة، شيخ خراسان، عمرو بن سلم النيسابوري الزاهد. توفي سنة ٢٦٤. انظر المصدر السابق: ٢/ ٩١٣ ـ ٩١٤.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٩١٣.

المبحث السادس
بيان مفسدات القلوب

القلب يفسد كما يفسد البدن، وفساده من أمور كثيرة تعرض للعبد، منها:

١) شغل القلب بغير الله ـ تبارك وتعالى ـ وتعلقه بغيره:

والأشغال الصارفة للقلب كثيرة، فمنها حب الدنيا، وطول الأمل، والتماس معايب الناس، وكراهيتهم، وإرادة الانتقام منهم، وملء القلب غلاً على الناس، فصاحب مثل هذا القلب متى يجمع قلبه على الله تبارك وتعالى، ومتى ينصرف عن هذه الوساوس.

هذا مع ما يقع للمرء ـ بسبب هذا كله ـ من قلة ذكر الله تبارك وتعالى.

٢) الذنوب:

وأثرها معلوم في تسويد القلب، وتكثيف حجابه عن الله تبارك وتعالى.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

والران يفسره ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) سورة المطففين: آية ١٤.

«إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع[١] واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ذلك الرين الذي ذكره الله عز وجل ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[٢].

وقال الحسن البصري: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت[٣].

٣) كثرة خلطة الناس:

إذ الضابط في الخلطة المحمودة هو مشاركة الناس في الخير، والبعد عن مشاركتهم في الآثام وفضول المباحات، فمن لم يستطع إلا المخالطة في المباحات فليسل قلبه من الناس سل الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظاً، ينظر إليهم ولا يبصرهم، يسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم ورقى به إلى الملأ الأعلى مع الأرواح الزكية[٤].

٤) كثرة تناول الطعام والشراب:

قال الفضيل بن عياض[٥]: «خصلتان تقسيان القلب: كثرة الكلام وكثرة الأكل»[٦].

---

(١) أي: نزع نفسه عن ارتكاب المعاصي: انظر «الفتح الرباني»: ١٩/ ٣٣٥.

(٢) أخرج الحديث الإمام أحمد في مسنده، وقال الأستاذ البنا: أخرجه النسائي والترمذي وابن ماجه وابن جرير، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. انظر المصدر السابق.

(٣) «تفسير القرآن العظيم»: ٨/ ٣٧٣.

(٤) انظر «تهذيب المدارج»: ٢٤٦.

(٥) هو الإمام القدوة الثبت، شيخ الإسلام، أبو علي التميمي، المجاور بحرم الله. توفي سنة ١٨٦. انظر «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٦٠ ـ ٦٧٠.

(٦) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٦٧.

وقال الإمام الشافعي: «ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا مرة، فأدخلت يدي فتقيأتها، لأن الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف عن العبادة»(١).

وقال أبو سليمان الداراني(٢): «لكل شيء صدأ، وصدأ القلب الشبع»(٣).

٥) كثرة النوم:

يضيع على كثير من الناس زمان كثير، وذلك لتماديهم في النوم، إذ المعتدل من الناس اليوم من ينام ثلث عمره، ومن الناس من يجاوز ذلك بكثير، فكم ينام إذا؟ وإن تجاوز المرء فنام عن المفروضات مات قلبه، والعياذ بالله تعالى.

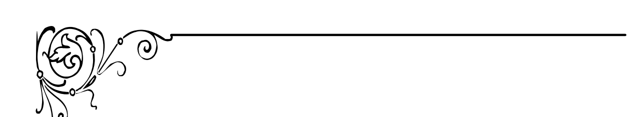
 

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٧٣٦.

(٢) زاهد عصره، عبد الرحمن بن أحمد العنسي الداراني. ولد في حدود سنة ١٤٠، وتوفي سنة ٢١٥. انظر المصدر السابق: ٢/ ٧٥٢ ـ ٧٥٣.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٧٥٣.



الفصل الثاني

الكلام على العبادات القلبية الأساسية



الكلام على العبادات القلبية الأساسية

لما تكلمت على القلب وتعريفه، وبيان فضله وأهمية عباداته، رأيت أن أفصّل الكلام في العبادات القلبية الرئيسية حتى تعرف أهميتها وعظم فضلها.

هذا وقد ذكرت خمس عبادات قلبية عليها ـ والله أعلم ـ مدار العمل، وهي الإخلاص، والتوبة، والتوكل، والخوف، والرجاء.

ثم أتبعت ذلك بذكر بعض الأخلاق الأساسية المهمة المرتبطة بالقلب وعبادته، مثالاً لما عداها من الأخلاق والصفات الحسنة.

وقد جرى القلم واتسع القول في الكلام على العبادات القلبية لأنها أساس العمل، فإن صلحت استقامت الأعمال، وحسنت الأخلاق، والله تعالى المسؤول أن يحققنا والمسلمين بهذه العبادات والأخلاق قولاً وعملاً، حالاً ومآلاً، حتى نسعد في الدنيا والآخرة، ونسلك في سلك المقبولين المخلصين.

١ـ الإخلاص

وهو أعظم العبادات القلبية، وأشدها خطراً، وقد توالت الآيات والأحاديث والآثار في بيان فضله، والتحذير من التهاون فيه.

ومعناه لغة:

خلص الشيء يخلص، خلوصاً وخلاصاً إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم، والمخلص: الذي وحد الله تعالى خالصاً، والمخلص: الذي أخلصه الله: جعله مختاراً خالصاً من الدنس، وكلمة الإخلاص: كلمة التوحيد.

والإخلاص في الطاعة: ترك الرياء[1].

واصطلاحاً:

للعلماء الربانيين في الإخلاص أقوال عديدة جميلة، فمنها:

١) استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن.

٢) الإخلاص أن لا تطلب لعملك شاهداً غير الله، ولا مجازياً سواه.

٣) تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين[2].

ـ والإخلاص درجات ومراتب بعضها أرفع من بعض، منها أن

---

(١) انظر «لسان العرب»: خ ل ص.

(٢) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٢٢.

يكون باطن الإنسان أعظم من ظاهره، فإن الإخلاص يتحقق باستواء الباطن والظاهر، لكن الدرجة العليا منه إنما تكون بعظم ما في السرائر.

ـ والإخلاص من الأعمال الباطنة التي تخفى عن الناس فلا يعلمها ملك فيكتبها، ولا شيطان فيفسدها[١]، فقد قال ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب بين يدي الله تعالى، فيقول تبارك وتعالى: ألقوا هذه واقبلوا هذه. فتقول الملائكة: وعزتك وجلالك ما رأينا إلا خيراً، فيقول الله عز وجل: إن هذا كان لغير وجهي، وإني لا أقبل إلا ما ابتغي به وجهي»[٢].

والآيات في الإخلاص كثيرة، منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٣].

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾[٤].

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[٥].

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾[٦].

---

(١) انظر المصدر السابق.
(٢) قال الحافظ المنذري: رواه البزار والطبري بإسنادين رواة أحدهما رواة الصحيح، انظر «الترغيب والترهيب»: ١/ ٧٣.
(٣) سورة البينة: آية ٥.
(٤) سورة الزمر: آية ٢ ـ ٣.
(٥) سورة الكهف: آية ١١.
(٦) سورة الليل: الآيات ١٧ ـ ٢١.

وفي الحديث القدسي الإلهي يقول الله تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[(١)].

وعن أبي بن كعب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة، والدين، والتمكين في الأرض . . . قال: فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»[(٢)].

وعن خيثمة بن عبد الرحمن قال: كنت جالساً مع عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر ﵄ فقال عبد الله بن عمر: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم والروح، فبكى عبد الله بن عمرو، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سمع الناس بعمله سمع الله به سامع خلقه، وصغره، وحقره»[(٣)].

وقد حث السلف ﵃ على الإخلاص، فهذا الربيع بن خثيم[(٤)] يقول: «السرائر اللاتي يخفين على الناس وهن لله بواد[(٥)]، التمسوا دواءهن، وما دواؤهن إلا أن يتوب ثم لا يعود»[(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزهد: باب تحريم الرياء: حديث رقم ٢٩٨٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح، كما ذكره الإمام الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ١٠/ ٢٢٣.

(٣) أخرجه الإمام أحمد والإمام الطبراني، وأحد أسانيد الطبراني في الكبير رجالها رجال الصحيح، كما ذكر الإمام الهيثمي في «المجمع»: ١٠/ ٢٢٥.

(٤) أحد كبار التابعين، أدرك زمان النبي ﷺ ولم يره، توفي قبل سنة ٦٥هـ، انظر «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣٨٠.

(٥) أي: بداية ظاهرة.

(٦) المصدر السابق.

وقال رحمه الله تعالى: «كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل»[١].

صعوبة الإخلاص:

والإخلاص عزيز، صعب المنال، يخفى على كثير من العاملين، لذلك كان السلف يدعون الله تعالى طالبين الإخلاص، فهذا السيد علي بن الحسين[٢] رحمه الله تعالى يدعو فيقول: «اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لوائح العيون[٣] علانيتي، وتقبح في خفيات العيون سريرتي»[٤].

وإنما يدعى الله ـ تعالى ـ بإخلاص العمل لأن الإخلاص صعب، ولا يرزقه إلا كل ذي حظ عظيم، «ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص، ولا يتمان إلا بالصبر»[٥].

«وقيل لأحد الصالحين: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب»[٦].

وقال أيوب السختياني[٧]: «تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال»[٨].

(١) المصدر السابق: ١/ ٣٨١.

(٢) ابن علي رضي الله عنه، من كبار العباد الزهاد، توفي بالمدينة سنة ٩٤هـ، انظر «نزهة الفضلاء»: ١/ ٤٠٤.

(٣) أي: ما يبدو للعيون.

(٤) المصدر السابق: ١/ ٤٠٧.

(٥) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٢٢.

(٦) المصدر السابق.

(٧) بصري، ثقة، من أعلام السلف، روى له الجماعة، وتوفي سنة ١٣١ عن ٦٥ سنة، انظر «إتحاف السادة المتقين»: ١٣/ ٨٧ ـ ٨٨.

(٨) المصدر السابق.

وقال الإمام الزاهد الفضيل بن عياض مبيناً صعوبة الإخلاص، وذاكراً أمراً يتلبس به أكثر العابدين: «لو قيل لك يا مرائي غضبت وشق عليك، وعسى ما قيل لك حق، تزينت للدنيا وتصنعت، وقصرت ثيابك، وحسنت سمتك[١]، وكففت أذاك حتى يقال: أبو فلان عابد، ما أحسن سمته، فيكرمونك ويقصدونك، ويهدون إليك مثل الدرهم الستوق[٢] لا يعرفه كل أحد، فإذا قُشر قشر عن نحاس»[٣].

فائدة الإخلاص وأثره:

للإخلاص أهمية عظيمة، تتمثل في الآتي:

١ـ عمود العمل وسنامه:

إذ العامل بدون إخلاص كادح متعبٌ نفسَه لا أجر له، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[٤].

وقال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٥].

وقال الإمام الزاهد الفُضَيْل بن عياض في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٦]: هو أخلصه وأصوبه.

قالوا: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟

(١) هيئة أهل الخير وحسن منظرهم. انظر «لسان العرب». س م ت.
(٢) أي: الدرهم المزيّف ظاهره فضة وباطنه نحاس.
(٣) انظر «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٦٧.
(٤) سورة الفرقان: آية ٢٣.
(٥) أخرجه الإمام البخاري في مقدمة صحيحه ١/ ٢.
(٦) سورة الملك: آية ٢.

فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[١].

وقد أخبر النبي ﷺ عن مصير مَن لم يُخلص عمله لله تعالى، أخبر عنه في حديث عظيم خطير حدّث به عنه أبو هريرة رضي الله عنه وحدث به عن أبي هريرة شُفَيّ الأصبحي فقال: إنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة. فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت: أنشدك بحق وحق لمَّا حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنَّك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ وعُلّمته، ثم نَشَغ[٢] أبو هريرة نِشْغة فمكث قليلاً، ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نِشْغة أخرى فمكث كذلك ثم أفاق ومسح وجهه، قال: أفعل، لأحدثنك بحديث حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارّاً على وجهه، فأسندته طويلاً، ثم أفاق، فقال: حدثني رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول للقارئ:

(١) سورة الكهف: آية ١١٠، وانظر «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٢١.
(٢) أي: أغمي عليه.

ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به أثناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت. وتقول الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل.

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق. فيقول الله: كذبت. وتقول الملائكة: كذبت. فيقول الله: بل أردت أن يقال فلان جواد. فقد قيل ذاك.

ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله، فيقال له: فيم قُتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله: كذبت. وتقول الملائكة: كذبت. ويقول الله عز وجل له: بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»(١).

٢ـ الإخلاص يُعظم العمل ويكثره:

وذلك لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ ينميه، ويجازي المخلص في عمله بتكثير فعله وتعظيمه حتى يجده يوم القيامة فوق ما يحتسب، وقال

(١) أخرجه الإمام ابن خزيمة في صحيحه كتاب الزكاة: باب التغليظ في الصدقة مراءاة وسمعة: ٤/ ١١٥ ـ ١١٦ بسند رجاله ثقات كما ذكر المحقق، وجاء في «الترغيب والترهيب»: ١/ ٦٤ زيادة في آخر الحديث أنه قد دخل على معاوية رجل فأخبره بالحديث فقال معاوية: «قد فُعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً حتى ظننّا أنه هلك، وقلنا: قد جاء هذا الرجل بشرّ، ثم أفاق معاوية وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى قوله ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

الإمام الكبير عبد الله بن المبارك[١]: «رب عمل صغير تكثره النية، ورب عمل كثير تُصغّره النية»[٢].

وكتب بعض الصالحين إلى صديق له: «أخلص النية في أعمالك يَكْفِك القليل من العمل»[٣].

٣ـ الإخلاص ينقي القلب من الشوائب:

إذ القلب دائم التقلب، كثير الشواغل، ينصرف عن الخير لأدنى ملابسة، والإخلاص كفيل بأن يصفي القلب ويميله إلى مولاه، قال النبي ﷺ: «ثلاث لا يَغِل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»[٤].

ومعنى «لا يَغِلّ عليهن قلب مسلم» أي لا يبقى فيه غلّ، ولا يحمل القلبُ الغلّ مع هذه الخصال الثلاث[٥].

وقال الإمام مكحول[٦] رحمه الله تعالى: «ما أخلص عبد قطُّ أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٧].

---

(١) توفي سنة ١٨١، انظر «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٥٤.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٥٧.

(٣) «إتحاف السادة المتقين»: للزبيدي: ١٣/ ٨٧.

(٤) أخرجه عدد من الأئمة بأسانيد يحسن بعضها بعضاً، انظر «مجمع الزوائد»: ١/ ١٤٢ ـ ١٤٤.

(٥) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٢١.

(٦) أبو مسلم الدمشقي الزاهد، التابعي، توفي في حدود سنة ١١٢. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥/ ١٥٥ ـ ١٦٠.

(٧) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٢٢.

وقال أبو سليمان الداراني[١]، رحمه الله تعالى: «إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء»[٢].

٤ـ الثبات على العمل الصالح:

فالإخلاص «يمد العامل بقوة الاستمرار، فإن الذي يعمل للناس، والذي يعمل لشهوة البطن أو الفرج يكفّ إذا لم يجد ما يشبع شهوته، والذي يعمل أملاً في شهرة أو منصب يتراخى ويتثاقل إذا لاح له أن أمله بعيد المنال، والذي يعمل لوجه الرئيس أو الأمير ينقطع أو يتوانى إذا عُزل الرئيس أو مات الأمير.

أما الذي يعمل لله فلا ينقطع ولا ينثني ولا يسترخي أبداً، لأن الذي يعمل له لا يغيب ولا يزول، فوجه الله باق إذا غابت وجوه البشر... ولهذا قال الصالحون: ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل، وهذا ما صدّقه الواقع، وما رأيناه ولمسناه ولا زلنا نراه ونلمسه في كل زمان ومكان»[٣].

٥ـ قلب المباحات إلى عبادات:

«الإخلاص هو إكسير الأعمال، الذي إذا وضع على أي عمل ـ ولو كان من المباحات والعادات ـ حوّله إلى عبادة وقربة لله تعالى...

قال تعالى في شأن الذين يجاهدون في سبيله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا

---

(١) الإمام الكبير الزاهد عبد الرحمن بن أحمد العَنْسي الداراني. توفي سنة ٢١٥. انظر «سير أعلام النبلاء» ١٠/ ١٨٢ ـ ١٨٦.

(٢) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٢٢.

(٣) «النية والإخلاص»: د. يوسف القرضاوي: ١٠٣ ـ ١٠٤.

يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١].

فجعل جوعهم وعطشهم ومشيهم ونفقتهم مما يسجل لهم في رصيد حسناتهم عند الله عز وجل، ما دام ذلك في سبيل الله.

وأكثر من ذلك ما جاء في مثوبة من ارتبط فرساً ليجاهد عليها في سبيل الله... فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من احتبس فرساً في سبيل الله، إيماناً بالله، وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريه، وروثه وبوله، في ميزانه يوم القيامة[٢]»[٣].

٦ـ الإخلاص طريق معية الله تعالى ونصره:

قال الله تبارك وتعالى عن الصحابة أهل بيعة الرضوان تحت الشجرة: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٤].

وكتب أمير المؤمنين عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما وكان قد ولاه البصرة: «من خلصت نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بغير ما يعلم الله من قلبه شانه الله...»[٥].

---

(١) سورة التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١.
(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد: باب من احتبس فرساً لقوله تعالى ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾: ٤/ ٣٤.
(٣) «النية والإخلاص»: ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٤) سورة الفتح: آية ١٨.
(٥) «إتحاف السادة المتقين»: ١٣/ ٨٧، ونسب الزبيدي الأثر إلى حِلْية أبي نعيم.

صور على عدم الإخلاص أو اختلاطه:

ذكر الإمام الغزاليّ ـ رحمه الله تعالى ـ صوراً على عدم الإخلاص أو اختلاطه تتقطع لها نياط القلوب؛ وذلك لكثرة فاعليها، ولخفائها، وظنِّ صاحبها أنه من المحسنين، فقال رحمه الله تعالى: «نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب، ولكن امتزج بهذا الباعث باعثٌ آخر من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس، ومثال ذلك أن يصوم العبد لينتفع بالحِمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب.

أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه.

أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده، أو ليهرب من عدوٍّ له في منزله، أو يتبرّم من أهله وولده ـ أي يتضجر بهم ـ أو شُغْلٌ هو فيه فأراد أن يستريح من ذلك أياماً.

أو يغزو العدو ليمارس الحرب، ويتعلم أسبابه، ويقدر به على تهيئة العساكر وجرّها.

أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب أهله أو رَحْله.

أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال، أو يكون عزيزاً بين العشيرة، أو ليكون عقاره وماله محروساً بعزّ العلم عن الأطماع.

أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص من كرب الصمت، وينفرج بلذة الحديث.

أو تكفل بخدمة العلماء أو الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس، أو لينال به رفقاً في الدنيا.

أو كتب مصحفاً ليجوّد بالمواظبة على الكتابة خطه. . . أو توضأ ليتنظف أو يتبرد. . .

أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد. . .

أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام، أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها.

أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه وإلحاحه ـ في السؤال ـ عن نفسه.

أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض.

أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله.

أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به، وينظر إليه بعين الصلاح والوقار، فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور؛ فقد خرج عمله عن حد الإخلاص. . .

وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب ـ قل أم كثر ـ إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه، وزال به إخلاصه، والإنسان مرتبط في حظوظه، منغمس في شهواته، قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس، فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب»[١].

---

(١) «إتحاف السادة المتقين»: ١٣/ ٩٣ ـ ٩٥. وسيأتي في الصفحات القادمة ـ إن شاء الله تعالى ـ علاج لهذه الصعوبات في باب الإخلاص.

ومن صور اختلاط الإخلاص أيضاً أن «المصلي مهما كان مخلصاً في صلاته ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول[١]: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك، فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته»[٢].

وهناك صورة أدق من هذه وأغمض في باب الإخلاص حيث يستمر المصلي في صلاته ولا يلتفت إلى الشيطان ووسوسته، فيأتيه من باب آخر فيقول له: «أنت متبوع، ومقتدى بك، ومنظور إليك، وما تفعله يُؤْثر عنك[٣] ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت، فأحسِن عملك بين يديه فعسى يُقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة»[٤]، وهذا مطلب حسن ولكن لما كان المصلي في الخلوة لا يتصف بالخشوع وحسن العبادة كان فعله ذلك بين الناس من وسوسة الشيطان وتلبيسه.

وهناك درجة أغمض وأدق، وهي أن المصلي «يعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ، ويستحيي من نفسه ومن ربه أن يخشع لمشاهدة خلقه تخشعاً زائداً على عادته فيُقبل على نفسه في الخلوة ويُحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ، ويصلي في الملأ أيضاً كذلك، فهذا أيضاً من الرياء الغامض؛ لأنه حسّن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ

(١) أي: فيقول المصلي لنفسه.

(٢) «إتحاف السادة المتقين»: ١٣/ ١٠٧ ـ ١١٠.

(٣) أي: يُنقل عنك.

(٤) المصدر السابق.

فلا يكون قد فرق بينهما، فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق، بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة»[(١)].

وهناك درجة أغمض وأدق؛ إذ يقول الشيطان للمصلي بين الناس: «تفكر في عظمة الله وجلاله ومن أنت واقف بين يديه، واستح من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيُحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه، ويظن أن ذلك عين الإخلاص، وهذا عين المكر والخداع؛ فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخَطوة تلازمه في الخلوة»[(٢)]، وهذه صورة قد تغمض على العابد فيغتال الشيطان إخلاصه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إذ «لا يسلم من الشيطان إلا من دقّ نظره، وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمشمرين لعبادة الله لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين، وقص الشارب، وطيب يوم الجمعة، ولبس الثياب»[(٣)].

قواعد وتنبيهات:

١ـ صعوبة تحقيق الإخلاص الكامل:

لا يُتصور الإخلاص الكامل إلا لمستغرق في حب الله ـ تبارك

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق. وسيأتي في الصفحات القادمة ـ إن شاء الله تعالى ـ علاج لهذه الصعوبات في باب الإخلاص.

وتعالى ـ ورعاية الدار الآخرة؛ وذلك لأن الإنسان كثير النسيان، عظيم الميل إلى الدنيا، شديد الاغترار بها، فمن كان حاله كذلك لا يُتصور منه الإخلاص الكامل إلا ممن وفقه الله تعالى، إذ مَن منا ـ مثلاً ـ الذي لا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله، ومَن الذي ينام ليتقوى على عبادة الله ـ تبارك وتعالى ـ ومَن الذي يقضي حاجاتِه الضرورية ليستعين بذلك على فراغ قلبه من التعلق بالدنيا وإحسان الصلة بالله عز وجلّ، وهكذا.

إذاً ينبغي للعبد أن يسدد ويقارب، ويضع نصب عينيه الإخلاص التام، ولا يلتفت إلى وساوس الشيطان في هذا الباب؛ إذ وساوسه هاجس مُدمّر، لكن عليه ألا يتهاون إن اختلطت أعماله الصالحة وهو قادر على تصفيتها من الشوائب المضيعة للعمل المذهبة لثوابه.

٢ـ عدم ترك العمل الصالح إن خِيف عليه الاختلاط:

قال أبو طالب المكيّ[١] رحمه الله تعالى: «ولا يترك العبد العمل الصالح خشية دخول الآفة عليه فإن ذلك بُغية عدوه منه، لكن يكون على نيته الأولى من صحة القصد، فإن دُخلت عليه[٢] وضع عليها دواءً فعمل في نفيها وإزالتها، وثبت على حسن نيته وصالح معاملته، ولا يدع عملاً لأجل الخلق حياء منهم وكراهة اعتقادهم فضلَه، فإن العمل لأجل الناس شرك وتركه لأجلهم رياء، وترك العمل خشية دخول الآفة فيه جهل، وتركه عند دخول العلة عليه ضعف ووهن،

(١) محمد بن علي بن عطية الحارثي، الإمام الزاهد العارف، توفي سنة ٣٨٦، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧.

(٢) أي: دخل على العمل الفساد لاختلاف النية.

ومن دخل في العمل لله ـ تعالى ـ وخرج منه لله ـ تعالى ـ لم يضره ما كان بين ذلك بعد أن ينفيه ولا يساكنه[(١)]»[(٢)].

٣ـ يمكن إصلاح النية بعد فسادها:

قد يظن بعض الناس أن العمل إن بُدئ بنية فاسدة فإنه يجب الانصراف عنه وعدم الاستمرار فيه، والحق أنه يُمكن إصلاح النية والبناء على العمل وعدم تركه، وقد كان جماعات من السلف طلبوا العلم بغير نية تامة صحيحة، ثم تذكروا ورجعوا إلى الله وأصلحوا نياتهم واستأنفوا طلب العلم بنية صحيحة.

قال الإمام الذهبي (ت ٧٤٨) رحمه الله تعالى: «قال عبد الرزاق (ت ٢١١) أنبأنا مَعمر (ت ١٥٤) قال: كان يقال: إن الرجل يطلب العلم لغير الله فيأبى عليه العلم حتى يكون لله.

قلت: نعم، يطلبه أولاً والحامل له حب العلم، وحب إزالة الجهل عنه، وحب الوظائف، ونحو ذلك، ولم يكن علم وجوب الإخلاص فيه ولا صدق النية، فإذا علم حاسب نفسه، وخاف من وبال قصده، فتجيئه النية الصالحة كلها أو بعضها، وقد يتوب من نيته الفاسدة ويندم؛ وعلامة ذلك أن يقصر من الدعاوى وحب المناظرة، ومن قصد التكثر بعلمه، ويزري على نفسه؛ فإن تكثر بعلمه، أو قال: أنا أعلم من فلان فبعداً له»[(٣)].

---

(١) أي: ولا يساكن (يصاحب) النية الفاسدة المدخولة.

(٢) «إتحاف السادة المتقين»: ١٣/ ١٠٥.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٥٦٠.

وقال الإمام الذهبي في موضع آخر: «قد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله، وحصلوه، ثم استفاقوا وحاسبوا أنفسهم، فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق كما قال مجاهد (ت ١٠١) وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية ثم رزق الله النية بعد»[١].

٤ـ شوائب الإخلاص تؤثر في ثواب العمل لكنها لا تحبطه:

إذ من قصد بالعمل وجه الله تعالى وأخلص فيه، لكن شاب ذلك شيء من حظوظ الدنيا غفلة، أو شهوة، فإن ثواب العمل لا يذهب بالكلية ـ فضلاً من الله ونعمة ـ «ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك، فإن هذا حرج في الدنيا، ومدخل لليأس على المسلمين؛ لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قد لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور والقلة، فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب، فأما أن يكون في إحباطه فلا» فلذلك ينبغي للعبد «أن يكون أبداً ـ بعد كمال الاجتهاد ـ متردداً بين الرد والقبول، خائفاً أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها، وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة»[٢].

٥ـ جواز إظهار بعض الأعمال الصالحة بنية حسنة:

الأصل في الأعمال الصالحة أنها يجب إخفاؤها وعدم اطلاع أحد عليها إلا إن كانت مما يظهر ولا بد؛ كالحج وصلاة الجماعة مثلاً،

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٥٧٥.

(٢) «إتحاف السادة المتقين»: ١٣/ ١٢٠.

وإنما يمكن إظهار بعض الأعمال الصالحة الخفية والتكلم بها إن حصل للعبد أمران:

الأول: الأمن من الرياء.

الآخر: وجود فائدة دينية حاصلة من التصريح بالأعمال الصالحة كاقتداء الضعيف بالقوي، أو التطمين والتبشير، ومثاله ما قال أبو سفيان بن الحارث ﵁ ـ وهو ابن عم النبي ﷺ ـ لأهله حين الاحتضار:

لا تبكوا علي فإني ما أحدثت ذنباً منذ أسلمت[١].

دلائل الإخلاص:

للمخلص علامات يعرف بها، فمن ذلك: الخوف من الشهرة، واتهام النفس بالتفريط والتقصير، والعمل في صمت، وعدم طلب المدح والثناء أو الاغترار به، وألا يبخل بمدح من يستحق المدح والثناء بشروطه، وأن يستوي العمل عنده في العمل لله قائداً أو مقوداً، وأن يحتفل برضا الله لا برضا الناس، وأن يجعل رضاه وسخطه لله لا لنفسه، وأن يصبر على طول طريق التكاليف وتأخر النصر، وأن يفرح بنجاح أقرانه أو على الأقل ألا يغضب من ذلك، وأن يحرص على تنقية دواخله من العجب، وألا يزكي نفسه، وأن يكتم طاعاته إلا لمصلحة راجحة بينة، وغير ذلك من الدلائل، ولكل ما سبق أمثلة وشواهد، وشرح يطول، أعرضت عنه اختصاراً[٢].

---

(١) المصدر السابق: ١٠/ ١٦٢.

(٢) انظر فيما سبق «النية والإخلاص» د. يوسف القرضاوي: ٦٩ ـ ٩٤.

المعين على الإخلاص:

١ـ الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى:

إذ هو المعين والملجأ في كل الأمور سبحانه وتعالى.

٢ـ العلم:

وذلك بأن يعرف العبد أهمية الإخلاص، ويدرك أساليب الشيطان وفعلها في النفوس، ويعلم ما جاء في كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة رسوله ﷺ من حث على الإخلاص، وقد سبق سياق ذلك.

٣ـ المجاهدة:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

٤ـ صحبة المخلصين:

فإن ذلك يورثه حب الإخلاص، والعمل على الاتصاف به، والاطلاع على مجاهداتهم في هذا الباب نافع.

٥ـ قراءة سير السلف ومن بعدهم من الصالحين:

إذ ليس أنفع ـ بعد توفيق الله تعالى ـ من الاطلاع على سير الصالحين، وأقوالهم النافعة، ومجاهداتهم الصائبة.

وفي كل هذا كلام طويل، وأمثلة وشواهد تركتها اختصاراً[2].

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٩.

(٢) «النية والإخلاص» د. يوسف القرضاوي: ١١٣ ـ ١٢٠.

٢ـ التوبة

وهي أولى مراتب العائدين إلى الله ـ تعالى ـ والمصلحين لأحوالهم معه سبحانه، «ومبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول إقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين»(١).

«ومنزل التوبة أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات»(٢).

وقد حث الله تبارك وتعالى عليها في مواضع كثيرة من كتابه، فقال جل من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾(٣).

وقد وصف نفسه سبحانه بأنه كثير العفو عن التائبين فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾(٤).

وقال جل من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٥).

---

(١) «إتحاف السادة المتقين»: ١٠/ ٥٤٧.
(٢) «تهذيب مدارج السالكين»: ١٢١.
(٣) سورة التحريم: آية ٨.
(٤) سورة طه: آية ٨٢.
(٥) سورة التوبة: آية ١١٨.

والله تعالى يفرح بتوبة عبده، مع أنه ـ سبحانه ـ أخبر أنه ﴿لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[١]، وأنه «لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»[٢] لكنه سبحانه يفرح بتوبة التائب كرماً منه وفضلاً، وقد صور رسول الله ﷺ ذلك أحسن تصوير فقال: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلة بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»[٣].

وقد ذكر الإمام ابن القيم كلاماً طويلاً في سبب الفرح ومعناه حاصله أن الله ـ تعالى ـ موصوف بالجود والإحسان والبر، والعبد الآبق متعرض لإغضاب الله وإسخاطه وانتقامه، وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه، وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه، فاستدعى بمعصيته من أفعال الله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان، فإذا رجع العبد

(١) سورة العنكبوت: آية ٦.
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظلم: ١٦/ ١٠٢.
(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب التوبة: باب الحض على التوبة والفرح بها: ١٧/ ٢٢٠.

إلى مولاه حصل الفرح الإلهي بعود الإحسان والجود والبر على عبده.

وهناك سر آخر للفرح الإلهي وهو أن الله خلق الخلق ليعبدوه ويطيعوه، فإن خرج العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية فقد خرج عن أحب الأشياء إلى الله، وعن الغاية التي خلق الخليقة من أجلها، فإن رجع العبد إلى الطاعة والعبودية فقد رجع إلى الغاية التي هي أحب الأشياء إلى الله خالقه وفاطره، فاشتدت محبة الله له، هذا حاصل كلام ابن القيم.

وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ حكاية معبرة عن حال التائب مع الله ـ ولله المثل الأعلى ـ فقال:

ذكر بعض العارفين أنه رأى في بعض السكك باباً قد فتح، وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه خلفه تطرده حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكراً فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولا من يؤويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزيناً، فوجد الباب مغلقاً فتوسده، ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي، وتقول: يا ولدي! أين تذهب عني؟ ومن يؤويك سواي؟ ألم أقل لك لا تخالفني، ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم: (لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة) وتأمل قوله ﷺ: «لله أرحم بعباده من الوالدة

بولدها»[١]، وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟[٢].

والله ـ تعالى ـ يحب التائب، فقد قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[٣].

وقد قال النبي ﷺ: «إن الله ـ عز وجل ـ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسطُ يده بالنهار ليتوبَ مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[٤].

وقد كان المصطفى ﷺ يكثر من التوبة ويحث أصحابه عليها، فيقول ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مئة مرة»[٥].

وقد حث السلف على التوبة في آثار كثيرة، منها ما قاله طلق بن حبيب[٦] رحمه الله تعالى: «إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين»[٧].

معنى التوبة وحكمها:

التوبة: الرجوع من الذنب.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب التوبة: باب سعة رحمة الله وأنها تسبق غضبه: ١٧/ ٢٢٦، ولفظه: «من هذه بولدها».

(٢) «تهذيب مدارج السالكين»: ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٢٢.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب التوبة: باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت: ١٧/ ٢٣١.

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: باب التوبة: ١٧/ ١٩١.

(٦) بصري زاهد، من كبار العلماء توفي قبل المئة، انظر «نزهة الفضلاء»: ١/ ٤٥٥.

(٧) «إتحاف السادة المتقين»: ١٠/ ٦٠٣.

وقيل «هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلا ما يحبه ظاهراً وباطناً»[١].

والتوبة واجبة على الفور من كل الذنوب، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢]، إذاً «المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى وهي توبته من تأخير التوبة، وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة»[٣][٤].

أقسام الذنوب:

الذنوب قسمان: كبائر وصغائر.

وبعض العلماء لا يرى هذا التقسيم بل يعد كلّ مخالفة لله تعالى كبيرة، وذلك لكونها جرأةً على الله تعالى، ولأن من قال ذلك نظر إلى عظيم حق الله تعالى على عباده، وقال بعض العلماء: إنما قيل: صغيرة بالنظر إلى ما هو أكبر منها، وإلا فكل الذنوب كبائر[٥]، وهذا المذهب مرجوح لأن الله تعالى قسم الذنوب إلى فواحش كبائر، وإلى لمم صغائر فقال جل من قائل: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[٦]

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين»: ١٧٦.
(٢) سورة النور: آية ٣١.
(٣) «تهذيب مدارج السالكين»: ١٥٧.
(٤) انظر «إتحاف السادة المتقين»: ١٠/ ٦١٢.
(٥) انظر «إتحاف السادة المتقين»: ١٥٧.
(٦) سورة النجم: آية ٣٢. واللمم: صغائر الذنوب كالقبلة والغمزة والنظرة ونحو ذلك، انظر «تهذيب مدارج السالكين».

والحق ـ والله أعلم ـ أن الذنوب منقسمة إلى كبائر وصغائر، والكبائر غير منحصرة في عدد معين بل كل ما نهى الله عنه متوعداً عليه بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب، أو أوجب على من فعله الحدَّ في الدنيا فهو كبيرة، والصغائر ما عدا ذلك[(١)].

بيان أسباب انقلاب الصغائر كبائر:

ذكر الإمام ابن القيم أن «الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف، والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبة»[(٢)] إذ قد تنقلب الصغيرة إلى كبيرة، وهذا لأسباب هي بالإضافة إلى ما ذكره الإمام ابن القيم:

١ـ الإصرار والمواظبة على الصغائر:

وهذا يوجد القسوة في النفس والران على القلب، ولذا قيل «لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار»[(٣)].

٢ـ استصغار الذنب:

قال النبي ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه..»[(٤)].

---

(١) «إتحاف السادة المتقين»: ١٠/ ٦١٥ ـ ٦١٦ بتصرف، وهناك أقوال أخرى في حد الكبيرة تركتها اختصاراً، فانظرها في المصدر المذكور.

(٢) «تهذيب مدارج السالكين»: ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٣) هذا القول منسوب لابن عباس في آثار يقوي بعضها بعضاً، انظر «إتحاف السادة المتقين»: ١٠/ ٦٨٧.

(٤) قال الإمام الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٩٢ «رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان وقد وثق».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه:

«إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا، قال ابن شهاب بيده فوق أنفه»(١).

وقال بعض السلف: «الذنب الذي لا يُغفر قول العبد: ليت كل ذنب عملته مثل هذا»(٢) أي: أن يستصغره.

ولذلك قال أنس رضي الله عنه لبعض التابعين: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا نعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات»(٣) ولم يقل أنس رضي الله عنه: إن الكبائر عُدّت بعد رسول الله ﷺ صغائر، وإنما قال هذا لأن «معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم ـ بالإضافة إلى جلال الله تعالى ـ من الكبائر، وبهذا السبب يَعْظُم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويُتجاوز عن العامّي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف؛ لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف»(٤).

ولا بد من تعظيم الجناية «فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها، وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها، فإن من استهان بإضاعة فلس ـ مثلاً ـ لم يندم على إضاعته، فإذا علم أنه دينار اشتد ندمه، وعظمت

(١) ومعنى قال به هكذا أي أشار بيده على أنفه ليطرد الذباب؛ كما فسره ابن شهاب الزهري راوي الحديث.
(٢) «إتحاف السادة المتقين»: ١٠/ ٦٨٩.
(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق: باب ما يُتقى من محقرات الذنوب: ٨/ ١٢٨.
(٤) «إتحاف السادة المتقين»: ١٠/ ٦٩٠.

إضاعته عنده، وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء: تعظيم الأمر، وتعظيم الآمر، والتصديق بالجزاء»[١].

٣ـ السرور بالصغيرة والفرح بها:

فيقول مرتكب الصغيرة مثلاً: أما رأيتني كيف فضحت فلاناً، وكيف ذكرت مساوئه حتى أخجلته، أو يقول المعتدي: لو رأيتني كيف ضربت فلاناً وأهنته، وهكذا.

«وتشتد الغفلة على مقارف الذنب حتى يفرح عند ظفره بشهوته المحرمة، وهذا الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها، ففرحه بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها... فإذا اشتدت غفلته إلى هذا الحد نقلته ـ ولا بد ـ إلى الإصرار، وهو الاستقرار على المخالفة، والعزم على العود، وذلك ذنب آخر لعله أعظم من الذنب الأول بكثير، وهذا من عقوبة الذنب أنه يوجد أكبر منه»[٢].

٤ـ التهاون بستر الله وحلمه:

وذلك عندما يغتر مرتكب الصغائر بستر الله عليه، ولا يدري أنه إمهال من الله له، بل يظن أن الله ـ تعالى ـ يحبه ويفضله ـ كما تصنع اليهود بقولها فيما قصه الله ـ تعالى ـ علينا من أخبارها: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾[٣].

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين»: ١٢٤.
(٢) المصدر السابق: ١٢٢ ـ ١٢٣.
(٣) سورة المائدة: آية ١٨.

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(١).

٥ـ هتك ستر الله بذكر الذنوب:

فمن ارتكب صغيرة وسترها الله عليه، ثم أظهرها وذكرها وتحدث بها فإنه قد ضاعف صغيرته بما ضم إليه من ذنوب، فقد يرغب بعض السامعين في ذنبه الذي ارتكبه، وقد يرغب هو نفسه السامعين في ارتكاب صغيرته، فتنقلب الصغيرة بهذه الاعتبارات وغيرها إلى كبيرة، فقد قال النبي ﷺ: «كل أمتي معافاةٌ إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً ثم يصبح قد ستره ربه فيقول: يا فلان! قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، فيبيت يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه»(٢).

٦ـ كون فاعل الصغيرة عالماً يُقتدى به، أو رجلاً معروفاً بالصلاح:

وهذا إن فعل الصغائر متعمِّداً مكابراً ضارباً للنصوص بعضها ببعض ربما كان حظه أن تنقلب عليه كبائر، لكن مَن فعل ذلك متأولاً، أو لغضب، أو غير ذلك فقد يغفر له لا سيما إن كان له أعمال توجب ذلك، وقد قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأيضاً فإنه يُعفى للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم مالا يُعفى لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ يقول: انظر إلى موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رمى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها، وجرّ بلحية نبي مثله ـ وهو هارون ـ ولطم عين

(١) سورة المجادلة: آية ٨.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الزهد: باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه: ١٨/ ٤١٢.

ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد ﷺ ورفعِه عليه، وربه ـ تعالى ـ يحتمل له ذلك كله ويحبه ويكرمه، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة، وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة، فكانت هذه في مقابلة أعدى عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمة القبط في كثير من الأمور، وخرج كالشعرة في البحر.

وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسى غاضب ربه مرة فأخذه وسجنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى... ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته»[(١)].

شروط التوبة من الكبائر والصغائر:

للتوبة من الصغائر طرائق منها:

١ـ اجتناب الكبائر:

من فضل الله ـ تعالى ـ على الناس أنه جعل اجتناب الكبائر تكفيراً تلقائياً للصغائر:

قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[(٢)].

وقال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»[(٣)].

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين»: ١٨٦.

(٢) سورة النساء: آية ٣١.

(٣) أخرجه الإمام مسلم: كتاب الطهارة: باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن: ٣/ ٤٧٠.

٢ـ الأعمال الصالحة:

من عمل الصالحات كفر عنه الذنوب الصغائر، ومثال ذلك صلاة الجماعة فإنها تكفر الصغائر، فقد قال النبي ﷺ: «من توضأ لصلاة فأسبغ الوضوء ثم مشى إلى الصلاة المكتوبة فصلاها مع الناس أو مع الجماعة أو في المسجد غفر الله له ذنوبه»(١).

٣ـ الاستغفار:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل، قال: «أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي ربي اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي ربي اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»(٢).

أي: ما دمت تذنب ثم تتوب غفرت لك.

٤ـ التسبيح وذكر الله تعالى:

قال النبي ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مئة مرة كانت له عدل عشرة رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق: كتاب التوبة: باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت: ١٧/ ٢٣٠.

أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك. ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»(١).

أما طريق التوبة من الكبائر فهو:

١) الندم على الذنب.

٢) الإقلاع عنه في الحال.

٣) العزم على عدم العودة إليه في المستقبل.

ومن تمام التوبة الاعتذار إلى الله «ولا نقصد به الاعتذار الذي هو محاجة عن الجناية، بل بأن يقول في قلبه ولسانه: اللهم لا براءة لي من ذنب فأعتذر، ولا قوة لي فأنتصر، ولكني مذنب مستغفر، اللهم لا عذر لي وإنما هو محض حقك ومحض جنايتي، فإن عفوت وإلا فالحق لك.

فهو اعتذار بإظهار الضعف والمسكنة، وأنه ضحية لعبة الشيطان العدو، وقوة سلطان النفس الأمارة بالسوء، والقول بلسانه: يا رب! لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلاً بك، ولا إنكاراً لاطلاعك، ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعاً في مغفرتك، واتكالاً على عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك، وطمعاً في سعة حلمك ورحمتك، وغرني بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء، وسترك المرخي علي، وأعانني جهلي، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلا بك،

(١) المصدر السابق: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء: ١٧/ ١٨٦.

ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك، ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار، والاعتراف بالعجز، والإقرار بالعبودية، فهذا من تمام التوبة، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل، والله يحب من عبده أن يتملق له»[١].

وتلك الشروط صالحة إن أذنب العبد بينه وبين ربه، أما إن تعلق الذنب بحق العباد فيضاف إلى تلك الشروط الثلاثة شرطان، أولهما:

٤ـ التحلل من العبد ومظلمته؛ وذلك يكون إما بأداء ذلك الحق إلى المظلوم، أو «باستحلاله منه بعد إعلامه به وإن كان حقاً مالياً أو جناية على بدنه أو بدن مورثه، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات»[٢].

وإن كانت المظلمة بقدح فيه بغيبة أو قذف فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه؟ أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه ولا يشترط تعيينه[٣]، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، بل يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام من قذفه واغتابه؟ على ثلاثة أقوال».

(١) «تهذيب مدارج السالكين»: ١٢٤، والملق: هو التودد واللطف الشديد. انظر «لسان العرب»: ملق.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب المظالم: باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبين مظلمته: ٣/ ١٧٠، ولفظ البخاري: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».

(٣) أي: لا يشترط في التوبة تحديد كيفية النيل من العرض، بل يذكر كلاماً عاماً.

ثم ذكر ابن القيم أن مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك اشتراط الإعلام والتحلل قياساً على جناية الأبدان والحقوق المالية فإنه يشترط فيهما الإعلام والتحلل أو القصاص. واختار ابن تيمية أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرض المظلوم وقذفه واغتيابه بل يكفي توبته بينه وبين الله، وأن يذكر المقذوف والمغتاب في مواضع قذفه وغيبته بضد ما ذكره به، ويستغفر له، وذلك لأن إعلام المظلوم مفسدة لا تتضمن مصلحة، فإنه لا يزيده ذلك إلا حقداً وغماً، وقد كان مستريحاً قبل سماعه، وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه فضلاً عن أن يأمر به.

والفرق بين هذه الحالة ـ حالة القذف والغيبة ـ وحالة الجنايات المالية والبدنية أن في الأخيرتين فائدة من حيث انتفاع المظلوم بالمال، وأنه إذا أعلم بما حصل عليه لم يؤذه ذلك، ولم يجلب الضر والعداوة بل ربما فرح به، بخلاف إعلامه بما مزق به عرضه ليلاً ونهاراً من أنواع الهجاء والغيبة والقذف[١].

٥ـ وهناك شرط خامس مهم وهو أن تقع التوبة في زمانها، فلا تقبل التوبة من العبد المحتضر الذي حضره الموت، ولا تقبل إذا طلعت الشمس من مغربها وتحقق وقوع القيامة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٢].

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين»: ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٢) سورة النساء: آية ١٧ ـ ١٨.

وقال النبي ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[١].

وقال النبي ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، وذلك حتى تطلع الشمس من مغربها»[٢].

علامات التوبة:

للتوبة الصحيحة الصادقة علامات، فمنها:

١ـ أن يكون التائب بعد توبته خيراً مما كان عليه قبلها.

٢ـ أن يصاحبه الخوف من العقوبة حتى يموت ويسمع الملائكة تقول له: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٣] فهناك يزول الخوف.

٣ـ أن يكثر من البكاء والانكسار والانطراح بين يدي مولاه:

«ومن موجبات التوبة الصحيحة ـ أيضاً ـ كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كله، يتكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً.

---

(١) الغرغرة: هي تردد الروح في الحلق، والحديث أخرجه الإمام الترمذي في كتاب الدعوات: باب في فضل التوبة والاستغفار، وما ذكر من رحمة الله لعباده: ٥/ ٥٤٧، وقال الترمذي: حسن غريب.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب التوبة: باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت: ١٧/ ٢٣١.

(٣) سورة فصلت: آية ٣٠.

فليس شيء أحب إلى الله من هذه الكسرة والخضوع والتذلل، والإخبات والانطراح بين يديه، والاستسلام له، فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي وغناك وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه.

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته، وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللسان والدعوى، وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[١].

وقال عمر بن ذر (ت ١٥٣): كل حزن يبلى إلا حزن التائب عن ذنوبه[٢].

٤ـ أن تضيق على المذنب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه حتى يتوب: وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى في الثلاثة الذين خلفوا من غزوة تبوك رضي الله عنهم ثم تاب الله عليهم ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٣].

(١) «تهذيب مدارج السالكين»: ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٥٤٨.
(٣) سورة التوبة: آية ١١٨.

٥ـ هجران أصحاب السوء:

فإن من ادعى التوبة النصوح الصحيحة ثم هو ملازم لأصحاب السوء لا ينفك عنهم فهو أحد رجلين: كاذب فيما ادعاه، أو صاحب شهوة غالبة تقوده إلى ملازمة أصحاب السوء، وإلا فإن هجرهم من أوليات التوبة وبدائهها.

قال شقيق البلخي (ت ١٩٤)، رحمه الله تعالى: «علامة التوبة البكاء على ما سلف، والخوف من الوقوع في الذنب، وهجران إخوان السوء، وملازمة الأخيار»[١].

قواعد وتنبيهات:

١ـ من تاب بدلت سيئاته حسنات، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢].

٢ـ أعظم أنواع التوبة هي التوبة النصوح، وقد عرفت بأنها التوبة من الذنب مع عدم العودة إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع، وذكر ابن القيم أن التوبة النصوح تكون بثلاث أشياء: بتعميم جميع الذنوب بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته، والعزم بصدق على الإقلاع مع عدم العود، وأن يخلص التوبة من جميع العلل والشوائب، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، أو رعاية منصبه ورياسته، أو لحفظ قوته وماله، أو لاستدعاء حمد الناس، أو الهروب من ذمهم، أو

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ١١٧.

(٢) سورة الفرقان: آية ٧٠.

لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل، وهذه التوبة هي أكمل أنواع التوبة[١].

٣ـ المحرمات التي على العبد أن يتوب منها، وإليها ترجع جميع تفاصيل الكبائر هي اثنا عشر جنساً كلها مذكورة في كتاب الله تعالى: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين[٢].

٤ـ الأصلح والأتم للعبد أن يتوب من الكبائر والصغائر جميعها توبة نصوحاً، لكن قد يتوب الإنسان من الكبائر دون الصغائر، وقد يتوب من كبيرة أو أكثر وهو واقع في كبائر أخرى لم يتب منها بعد، وقد يتوب من الصغائر دون الكبائر، وكل هذا يقع للعبد، والله تعالى هو المستعان وعليه التكلان.

٥ـ هناك من يعجز عن التوبة مع إقراره بأهميتها وعظم فضلها وذلك لغلبة شهوته عليه، فذاك سبيله أن يتبع السيئة الحسنة ويكون ممن ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[٣]، ولعل الله أن ييسر له سبيل التوبة بمداومته على إتباع السيئات الحسنات، وإن لم يتب إلى مماته، فلعل حسناته أن تربو في الميزان على سيئاته فينجو بفضل الله وكرمه، وإلا فهو على خطر عظيم.

(١) «تهذيب مدارج السالكين»: ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٢) المصدر السابق: ١٩١.
(٣) سورة التوبة: آية ١٠٢ وراجع «إتحاف السادة المتقين»: ١/ ٧٤٩.

٦ـ لا بد للتائب من هجران إخوان السوء، وذلك لسببين:

الأول: لأنهم يحملونه على تذكر المعصية، ويشوقونه إليها، ويرغبونه فيها.

الآخر: لأن هجرانهم دليل على صحة توبته، وانجماعه على ربه، وإلا فكيف يدعي التوبة وهو يلابس آثار المعصية ورجالها؟ وقد سبق الكلام على هجران إخوان السوء.

٧ـ قال صاحب القاموس: «ورود التوبة في القرآن على ثلاثة أوجه:

الأول: بمعنى التجاوز والعفو، وهذا مقيد بـ «على»: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾(١) أو ﴿يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾(٢) أو ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾(٣).

الثاني: بمعنى الرجوع والإنابة، وهذا مقيد بـ «إلى»: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾(٤)، ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾(٥)، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٦).

الثالث: بمعنى الندم على الزلة، وهذا غير مقيد لا بـ «إلى»، ولا بـ «على»: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾(٧)، ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(٨)»(٩).

---

(١) سورة البقرة: آية ٥٤.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٢٨.
(٣) سورة التوبة: آية ١٥.
(٤) سورة الأعراف: آية ١٤٣.
(٥) سورة البقرة: آية ٥٤.
(٦) سورة النور: آية ٣٠.
(٧) سورة البقرة: آية ٥٤.
(٨) سورة التوبة: آية ٣٠.
(٩) «إتحاف السادة المتقين»: ١٠/ ٨١٢ ـ ٨١٣، نقلاً عن كتاب «بصائر التمييز» للفيروز آبادي.

٨ ـ يغفر الله تعالى لكل تائب صادق، ويتخلص التائب من المعاقبة الدنيوية إن تاب قبل معرفة الحاكم ووقوفه بين يديه؛ إلا الأصناف التالية:

أ ـ السحرة، وذلك لأن السحر كفر، ولأن الساحر لا يستطاع التأكد من توبته وانقطاع فساده.

ب ـ من سب نبياً وكان مسلماً في الأصل فإنه يقتل.

ج ـ الزنديق، وهو من لا يرى في العالم ديناً أحق من دين، أو هو من لا يتدين بدين من الأديان، وهو في كل ذلك يدعي الإسلام.

د ـ الرافضي الذي يسب الصحابة، وذلك عند أبي حنيفة، رحمه الله تعالى(١).

وتوبة هؤلاء غير مقبولة في الدنيا بل يقتلون، أما ما بينهم وبين الله ـ تعالى ـ فشيء مختلف، فإن الله مطلع على قلوبهم، عالم بما فيها من توبة صحيحة أو زائفة، ويعاملون يوم القيامة على ما وقر في قلوبهم قبل قتلهم.

بعض قصص التائبين:

١ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مئة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مئة نفس، فهل من توبة؟ فقال: نعم،

---

(١) «أحكام التوبة» للشيخ عبد الغني النابلسي: ٩٤ ـ ٩٨ بتصرف.

ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه ملك الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك بصورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة.

وفي رواية: فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها.

وفي رواية: فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي، وقال: قيسوا بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له.

وفي رواية: قال الحسن: ذكر لنا لما أتاه ملك الموت نأى بصدره نحوها»(١).

٢ـ عن بريدة رضي الله عنه قال:

جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهرني، فقال: ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني، فقال النبي ﷺ: ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه، قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني، فقال النبي ﷺ مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: فيم أطهرك؟ فقال: من الزنى، فسأل رسول الله ﷺ:

(١) «الترغيب والترهيب»: ٤/ ١٠١ ـ ١٠٢، وقال الحافظ المنذري: رواه البخاري ومسلم وابن ماجه بنحوه.

أبه جنون؟ فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: أشرب خمراً؟ فقام رجلاً فاستنكهه[١] فلم يجد منه ريح خمر.

فقال رسول الله ﷺ: أزنيت[٢]؟ فقال: نعم، فأمر برجمه، فكان الناس فيه فرقتين: قائل يقول لقد هلك، ولقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده ثم قال: اقتلني بالحجارة. قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلم ثم جلس، فقال: استغفروا لماعز بن مالك، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. قال: فقال رسول الله ﷺ: لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»[٣].

٣ـ وعن بريدة رضي الله عنه قال:

فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله! إني زنيت فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزاً، فو الله إني لحبلى، قال: إما لا فاذهبي حتى تلدي، فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته. قال: فاذهبي فارضعيه حتى تفطميه، فلما فطمته أتته بالصبي في يديه كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر

---

(١) أي: فشم رائحة فمه.

(٢) وفي رواية للبخاري أنه كان محصناً.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الحدود: باب من اعترف على نفسه بالزنى: ١١/ ٣٤٥.

الناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها، فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها فقال: مهلاً يا خالد! فو الذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس(١) لغفر له.

وفي رواية: ثم صلى عليها، فقال عمر: تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت! فقال: لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى»(٢).

٤ـ توبة كعب بن مالك رضي الله عنه:

وقصته عظيمة مؤثرة، أنقلها بطولها لما فيها من العبر والعظات:

قال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنه، وإنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك

---

(١) المكس: الضريبة.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الحدود: باب من اعترف على نفسه بالزنى: ١١/ ٣٤٧.

الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً، فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد بذلك الديوان ـ قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب يظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر[1]، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت. فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً، والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أن لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق[2]، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال، وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» قال رجل من بني سلمة: يا رسول الله! حبسه برداه والنظر في عطفيه[3]، فقال له معاذ بن جبل:

---

(١) أي: أميل.
(٢) أي: متهماً بالنفاق.
(٣) أي: النظر في جانبيه، إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيضاً[1] يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون.

فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي[2]، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بم أخرج من سخطه غداً، وأستعين على ذلك بكلِّ ذي رأي من أهلي.

فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل؛ حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه.

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت، فلما سلمت تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «تعال»، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» قال: قلت: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن

(١) أي: لابساً البياض.

(٢) أي: حزني وهمي.

حدثتك حديث صدق تجد علي[١] فيه لأرجو فيه عقبى الله. والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

قال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت، وثار رجال من بني سلمة، فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فو الله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي. قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لي.

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه. قال: فاجتنبنا الناس. وقال: تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو في

---

(١) أي: تغضب علي.

مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني.

حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فو الله ما رد علي السلام. فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمن أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي(١) من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني، فدفع إلي كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. قال: فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء، فتياممت(٢) بها التنور فسجرتها(٣) بها.

حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث(٤) الوحي، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها

(١) النبط: فلاحو العجم.
(٢) أي: قصدت.
(٣) أحرقتها.
(٤) أي: أبطأ.

فلا تقربنها، قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ، فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربنك»، فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟

قال: فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا. قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع[1] يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج. قال: فآذن[2] رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض رجل إلي فرساً، وسعى ساع من أسلم قبلي، وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني فنزعت له ثوبي،

(١) جبل معروف بالمدينة.
(٢) أي: أعلم.

فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة، ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد، وحوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني، وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال: وهو يبرق وجهه من السرور، ويقول: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قال: فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال: «لا بل من عند الله»، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر. قال: وكنا نعرف ذلك.

قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أمسك بعض مالك فهو خير لك» قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. قال: وقلت: يا رسول الله! إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت. قال: فو الله ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به. والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ

وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ حتى بلغ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[(١)] قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا. إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، وقال الله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[(٢)] قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ وليس الذي ذكر لله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه[(٣)] أمرنا عمن خلف له واعتذر إليه فقبل منه[(٤)].

٥ـ توبة زاذان الكندي، وهو أحد التابعين العلماء الكبار، وتوفي سنة اثنتين وثمانين، رحمه الله تعالى:

تاب على يد ابن مسعود رضي الله عنه، فقد قال زاذان: «كنت غلاماً حسن الصوت، جيد الضرب بالطنبور[(٥)]، فكنت مع صاحب لي، وعندنا نبيذ

(١) سورة التوبة: آية ١١٧ ـ ١١٩.
(٢) سورة التوبة: آية ٩٥ ـ ٩٦.
(٣) أي: تأخيره.
(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب التوبة: باب توبة كعب بن مالك وصاحبيه: ١٧/ ٢٣٩ ـ ٢٤٧.
(٥) العود.

وأنا أغنيهم، فمر ابن مسعود فضرب الباطية[١]، بددها وكسر الطنبور، ثم قال: لو كان ما يسمع من حسن صوتك يا غلام بالقرآن كنت أنت، ثم مضى، فقلت لأصحابي: من هذا؟ قالوا: هذا ابن مسعود، فألقي في نفسي التوبة، فسعيت أبكي، وأخذت بثوبه، فأقبل علي فاعتنقني وبكى، وقال: مرحباً بمن أحبه الله، اجلس، ثم دخل وأخرج لي تمراً»[٢].

٦ـ توبة الفضيل بن عياض (ت ١٨٦):

وقد كان قاطعاً للطريق «وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تالياً يتلو:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾...[٣] فلما سمعها قال: بلى يا رب قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها سابلة[٤] فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا. قال: ففكرت وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين ها هنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام»[٥].

---

(١) وعاء الخمر.
(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣٨٦.
(٣) سورة الحديد: آية ١٦.
(٤) السابلة: أبناء السبيل السالكون الطرقات لقضاء حوائجهم.
(٥) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٦٠.

٣ـ التوكل

وهو عبادة قلبية عظيمة، أخطأ في فهمها جماعات من العباد والزهاد، وجماعة من عامّة الناس الذين ذهبوا في هذه المسألة إلى طرفي النقيض: الإفراط والتفريط، وأخطؤوا التوسط الذي هو سمة هذه الأمة المباركة.

«وحاجة المسلم السالك لطريق الله إلى التوكل حاجة شديدة، وخصوصاً في قضية الرزق الذي شغل عقول الناس وقلوبهم، وأورث كثيراً منهم ـ بل أكثرهم ـ تعب البدن، وهمّ النفس، وأرق الليل، وعناء النهار.

وربما قبل أحدهم أن يذل نفسه، ويحني رأسه، ويبذل كرامته من أجل لقمة العيش التي يحسبها أنها في يد مخلوق مثله إن شاء أعطاه وإن شاء منعه، فحياته وحياة أولاده في قبضته، بل ربما زاد أحدهم على ذلك فأفتى نفسه بأكل السحت، وأخذ الرشوة، واستباحة الربا، وأكل المال بالباطل خوفاً على نفسه إذا شاخ بعد الشباب، أو مرض بعد الصحة، أو تعطل بعد العمل، أو خشية على ذرية ضعفاء من بعده... والمخرج من كل هذا هو الاعتصام بالتوكل على الله تعالى»[١].

---

(١) «التوكل» للدكتور يوسف القرضاوي: ٩ ـ ١٠.

وقال ابن القيم: «والتوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فالدين استعانة وعبادة[١]، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، بل هو[٢] محض العبودية وخالص التوحيد، إذا قام به صاحبه حقيقة»[٣].

معنى التوكل:

التوكل لغة:

«يقال: توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان أي ألجأته إليه، واعتمدت فيه عليه، ووكل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه».

واصطلاحاً: «المتوكل على الله: الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره، فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره».

«وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكِلَة الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه»[٤].

وقيل: «هو علم القلب بكفاية الرب للعبد»[٥].

---

(١) أخذ ابن القيم ذلك من قوله تعالى قاصاً شأن المؤمنين: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

(٢) أي: التوكل.

(٣) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٣٦.

(٤) قد سقت تعريفات التوكل هذه من مقدمة الأستاذ جاسم الفهيد لكتاب «التوكل على الله» للحافظ ابن أبي الدنيا: ٣١.

(٥) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٣٦.

والتوكل «هو تسليم الأمر مَن هو له، وعزل نفسه عن منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه عن تصرفه بنفسه وحوله وقوته... إلى تصرفه بربه وكونه به سبحانه دون نفسه، وهذا مقصود التوكل»[(١)].

مراتب الناس في التوكل:

١ـ الصالحون العالمون: فهؤلاء «يتوكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره».

٢ـ ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً من الناس.

٣ـ ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة، أو ولد، ونحو ذلك.

فأفضل التوكل:

التوكل في الواجب ـ أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس ـ .

وأوسعه وأنفعه:

التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم.

ثم الناس بَعْدُ في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم[(٢)].

---

(١) المصدر السابق: ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٢) المصدر السابق: ٣٤٤.

والقرآن مملوء بالحديث عن التوكل فحياة المرسلين مع أقوامهم: أنصارهم وأعدائهم مثلٌ للتوكل.

وجهاد المصلحين المذكور في القرآن من أمثال مؤمن آل فرعون، ومؤمن أصحاب القرية في سورة ياسين، وغيرهما مثلٌ للتوكل.

وقد كثرت آيات القرآن العظيم الداعيةُ إلى التوكل وإحسانه وإكماله، فقد قال جل من قائل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾(١).

وقال جل شأنه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾(٢).

وقال جل تعالى مبيناً دعاء أوليائه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾(٣).

وقال سبحانه معلماً رسوله: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾(٤).

وقال سبحانه مثنياً على الصحابة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾(٥).

إلى غير ذلك من آيات كثيرات.

وقد بين النبي ﷺ التوكل، وحث عليه، كيف لا ومن أسمائه ﷺ المتوكل، كما ورد في بعض الآثار.

---

(١) سورة المائدة: آية ٢٣.
(٢) سورة الطلاق: آية ٣.
(٣) سورة الممتحنة: آية ٤.
(٤) سورة آل عمران: آية ١٥٩.
(٥) سورة الأنفال: آية ٢.

وكان النبي ﷺ، يدعو الله ـ تعالى شأنه ـ فيبين للأمة توكله على مولاه فيقول: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، ولك خاصمت»[١].

وكان يأمر أصحابه بالتوكل فيقول لهم: «من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ باسم الله توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال به: كُفيت ووقيت، وتنحّى عنه الشيطان»[٢].

وقال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يُرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[٣].

وقد حث السلف على التوكل، وكانت حياتهم ترجمةً له:

فهذا الإمام سعيد بن جبير (ت ٩٥) يدعو فيقول: «اللهم أسألك صدق التوكل عليك، وحسن الظن بك».

وكان يقول: التوكل على الله جماع الإيمان[٤].

ـ وقيل لحاتم الأصم (ت ٢٣٧): على ما بنيت أمرك في التوكل؟

قال: على خصال أربعة: علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت به نفسي، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمت

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: باب الأدعية: ١٧/ ٢٠٢.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب الدعوات: باب ما جاء ما يقول إذا خرج من بيته: ٥/ ٤٩٠، وقال فيه: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) معنى «خماصاً» أي جائعة، والحديث أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب الزهد: بابٌ في التوكل على الله، وقال فيه: حديث حسن صحيح.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣٩٣.

أن الموت يأتي بغتة فأنا أبادره[١]، وعلمت أني لا أخلو من عين الله فأنا مستحي منه[٢].

وأخرج ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١) بسنده عن سعيد بن المسيب قال:

التقى عبد الله بن سلام وسلمان ـ رضي الله عنهما ـ فقال أحدهما لصاحبه: إن مت قبلي فالقني فأخبرني ما لقيت من ربك، وإن مت قبلك لقيتك فأخبرتك.

فقال أحدهما للآخر: أو يلقى الأموات الأحياء؟! قال: نعم، أرواحهم تذهب في الجنة حيث شاءت.

قال: فمات فلان[٣]، فلقيه في المنام فقال: توكل وأبشر، فلم أر مثل التوكل قط، توكل وأبشر فلم أر مثل التوكل قط[٤].

ـ وأخرج ابن أبي الدنيا بسنده عن عون بن عبد الله، قال:

«بينما رجل في بستان بمصر ـ في فتنة ابن الزبير ـ متكئاً معه شيء ينكت به في الأرض، إذ رفع رأسه فسنح له صاحب مسحاة[٥] فقال له: يا هذا! مالي أراك مكتئباً حزيناً؟ قال: فكأنه ازدراه[٦] فقال: لا شيء.

---

(١) أي: أسابقه، انظر «لسان العرب»: بدر.
(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/٨٤٨.
(٣) هو سلمان الفارسي رضي الله عنه كما ذكر الأستاذ جاسم الفهيد في تحقيقه لكتاب ابن أبي الدنيا: «التوكل» الذي ورد فيه هذا الخبر.
(٤) إسناد هذه الحكاية صحيح كما بين المحقق المذكور، المصدر السابق: ٦٣ ـ ٦٤.
(٥) آلة زراعية.
(٦) أي: احتقره.

فقال صاحب المسحاة: أللدنيا؟ فإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، والآخرة أجل صادق يحكم فيها ملك قادر يفصل بين الحق والباطل...

فلما سمع ذلك منه كأنه أعجبه فقال: لما فيه المسلمون.

قال: فإن الله ـ عز وجل ـ سينجيك بشفقتك على المسلمين، وسل فمن ذا الذي سأل الله ـ عز وجل ـ فلم يعطه، ودعاه فلم يجبه، وتوكل عليه فلم يكفه، أو وثق به فلم ينجه. قال: فعلقت الدعاء(١): اللهم سلمني وسلم مني، فتجلت(٢) ولم تصب منه أحداً»(٣).

ـ وأخرج ابن أبي الدنيا بسنده عن وهيب بن الورد (ت ١٥٣) أن رجلين كسر بهما في البحر فوقعا إلى الأرض، فأتيا بيتاً مبنياً من شجر فكانا فيه، فبينما هما ذات ليلة أحدهما نائم والآخر يقظان إذ جاءت امرأتان فوقفتا على الباب، بهما من قبح الهيئة شيء لا يعلمه إلا الله ـ عز وجل ـ فقالت إحداهما للأخرى: ادخلي، فقالت: ويحك! إني لا أستطيع. قالت: ويحك، لمه؟

قالت: أو ما ترين ما في الباب. فإذا لوح في البيت في كتاب(٤): حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا، وليس وراء الله مرمى(٥).

---

(١) أي: اغتنمته.

(٢) أي: الفتنة.

(٣) إسناد هذه الحكاية صحيح، انظر المصدر السابق: ٦٧ ـ ٦٨.

(٤) أي: كتابة.

(٥) في «حلية الأولياء»: منتهى.

درجات التوكل:

للتوكل درجات بحسب المتوكل وقوة إيمانه، وعزمه وهمته:

فالدرجة الأولى: معرفة بالرب وصفاته: من قدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في التوكل.

الدرجة الثانية: إثبات الأسباب(١) والمسببات.

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل.

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه.

وعلامة هذا أنه لا يبالي بإقبال الدنيا وإدبارها، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها وإقبال ما يكره؛ لأن اعتماده على الله وسكونه إليه واستناده إليه قد حصنه من خوفها ورجائها.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل فعلى قدر حسن الظن بالله ورجائه يكون التوكل عليه.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته.

فإن توكل العبد هذا التوكل أورثه علماً بأنه لا يملك قبل عمله استطاعة، ويعود لا يأمن مكر الله.

الدرجة السابعة: التفويض: وهو روح التوكل وحقيقته، وهو إلقاء

---

(١) وهي الأمور التي سخرها الله لنا في هذا الكون لتناولها في تسهيل أمور معاشنا، وسيأتي تفصيل الكلام عليها لأهميتها، واختلاف الناس فيها.

أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً. . . والمفوض لا يفوض أمره إلى الله تعالى إلا لإرادته أن يقضي له ما هو خير له في معاشه ومعاده، وإن كان المقضي له خلاف ما يظنه خيراً فهو راض به؛ لأنه يعلم أنه خير له وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه[١].

«وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله. . . كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله، ويمكنه نيلها بأيسر شيء وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم، ونصر الدين، والتأثير في العالم خيراً، فهذا توكل العاجز القاصر الهمة؛ كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين.

وحال النبي ﷺ وحال أصحابه رضي الله عنهم محك الأحوال وميزانها، بها يعلم صحيحها من سقيمها؛ فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم؛ فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يعبد الله في جميع البلاد، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان، وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقيناً وإيماناً»[٢].

العلاقة بين التوكل والأسباب:

وهو أمر مهم إلى الغاية، أخطأ فيه من أخطأ، ووفق للحق فيه من سعد وفاز.

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٣٧ ـ ٣٤١ بتصرف.

(٢) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

فمن تارك للأسباب، عاقد عزمه على ألا يتلبس بها، وهذا كان فيمن قبلنا أكثر، ويقل وجوده هذه الأيام.

ومن ملابس للأسباب إلى الحد الذي يعتقد أنه لا غناء له عنها، وأنَّ حياته لا تقوم بدونها، وأن سيهلك إن لم يعتمد عليها، وهو في هذا كله قد نسي الله إلى الغاية التي يسر بها الشيطان، والعياذ بالله، وهذه الطائفة كثيرة في أيامنا هذه، وأفكارها فاشية في أذهان الناس، مسيطرة عليها، تنادي عليهم صباح مساء بالحرص والشره والطمع، والتخويف من المستقبل القاتم فيما يصورونه، فالسعيد في زعمهم من حصل من الدنيا ما يقوم بحاله وحال أولاده وأحفاده إلى ما شاء الله، وصارت الأسباب تعبد مع الله أو من دون الله عند أكثر الناس، وقل من الناس من توسط وفهم الأسباب وعلاقتها بحياة المسلم على وجهها الصحيح.

القول فيمن نفى الأسباب كلية، وهم الفئة المفرطة:

«اعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به، فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سبباً، ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شيء فقد وقع في الوهم الباطل، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قضى بحصول الشبع إذا أكل المرء، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو، وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق، فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة.

فوزان ما قاله منكرو الأسباب أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل ويقول: إن كان قضى لي وسبق في الأزل حصول الشبع

والري والحج ونحوها فلا بد أن يصل إلي تحركت أو سكنت، سافرت أو قعدت، وإن لم يكن قد قضى لي لم يحصل لي أيضاً فعلت أو تركت.

فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه؟ فإن البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة[١]...

بل التجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً، وما أخل ﷺ بشيء من الأسباب، وقد ظاهر بين درعين[٢] يوم أحد، ولم يحضر الصف قط عرياناً، كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه يدله على طريق الهجرة... وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد...»[٣].

فالتوكل إذاً «لا ينافي رعاية الأسباب التي أقام الله عليها نظام هذا الكون، وأجرى عليها سننه، ومضت بها أقداره، وحكم بها شرعه»[٤].

«واستدل لذلك بالحديث المشهور عن أنس بن مالك قال: جاء رجل على ناقة له، فقال: يا رسول الله! أعقلها وأتوكل؟ أو أطلقها وأتوكل؟ فقال ﷺ: اعقلها وتوكل.

(١) وهو ما يسمى بالغريزة.
(٢) أي: لبس درعين.
(٣) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٣٨ ـ ٣٣٩.
(٤) «التوكل» للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي: ٣٥.

وهذا نص صريح حاكم في مراعاة الأسباب وأنها لا تنافي التوكل»[١].

وما أجمل ما قاله الشاعر:

وتوكل على الرحمن في الأمر كله
ولا ترغبن في العجز يوماً عن الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم
وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزة
جنته ولكن كل شيء له سبب

قال الأستاذ القرضاوي: «والحق أن المعرضين عن الأسباب بالكلية لا سند لهم من قرآن ولا سنة، ولا من عمل الصحابة وتابعيهم بإحسان... ولو أن المسلمين في خير القرون ساروا على هذا المنهج ما انتصر لهم دين، ولا تأسست لهم حضارة، ولا مكن لهم في الأرض، فإن هذا التوجه السلبي غريب على العقل الإسلامي، والروح الإسلامي، والنهج الإسلامي، الذي يعمل لتكوين الفرد الصالح والأسرة الصالحة والمجتمع الصالح، والأمة الصالحة، والدولة الصالحة... ولذا أنكره فقهاء الأمة المتبوعون وأئمتها المعتبرون، فهذا الإمام سفيان بن سعيد الثوري ـ وهو إمام في الفقه، وفي الحديث وفي الزهد واليقين ـ يقول: العالم إذا لم تكن له معيشة صار وكيلاً للظلمة، والعبد إذا لم تكن له معيشة أكل بدينه، والجاهل إذا لم تكن له معيشة صار وكيلاً للفساق»[٢].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق: ٤٦.

«وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: هذا كلام قوم ما فهموا معنى التوكل، وظنوا أنه ترك الكسب، وتعطيل الجوارح عن العمل، وقد بينا أن التوكل فعل القلب فلا ينافي حركة الجوارح، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين، فقد كان آدم عليه السلام حراثاً، ونوح وزكريا نجارين، وإدريس خياطاً، وإبراهيم ولوط زارعين، وصالح تاجراً، وكان سليمان يعمل الخوص، وداود يصنع الدرع ويأكل من ثمنه، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة، صلوات الله عليهم أجمعين»[(١)].

الرد على المتعلقين بالأسباب تعلقاً عظيماً، وهم الفئة المفرطة:

فهؤلاء على خطر عظيم لنسيانهم الله ـ تبارك وتعالى ـ وانصرافهم إلى الأسباب بالكلية، وإنما تذم الأسباب ـ في هذه الحالة ـ «إذا تعلق القلب بها وحدها وجعل كل اعتماده عليها، ونسي مسببها وخالقها، وجهل أن الأسباب لا تعمل وحدها... وقد ذكر القرآن لنا نموذجاً من الاعتماد على الأسباب الظاهرة وحدها فإذا هي لا تحقق نتائجها، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[(٢)].

لقد خذلوا وهم كثرة حيث غرهم الكم وأذهلهم عن التوكل فلم يغن الكم الكثير شيئاً، على حين انتصروا وهم قلة إذ كان اعتمادهم على الله وحده، بعد أن بذلوا ما استطاعوا»[(٣)].

---

(١) المصدر السابق: ٥١.
(٢) سورة التوبة: ٢٥.
(٣) المصدر السابق: ٦٥.

والمذهب الوسط بين طرفي النقيض هذين هو مذهب من أخذ بالأسباب مع التوكل على الله حق توكله، «فهو مع الأسباب بجوارحه وبدنه، ومع ربه بعقله وقلبه... وهو الذي رعى سنة الله في خلقه، وأحكامه في شرعه، موقناً أن الله تعالى هو الذي وضع الأسباب وأمر باتخاذها، ورتب عليها آثارها قدراً وشرعاً، وهو ـ في الوقت نفسه ـ قادر على أن يعطلها إن شاء، وأن يخلق من الموانع ما يعوق سيرها أو يبطل أثرها»[١].

من آثار التوكل:

للتوكل على الله آثار عظيمة منها السكينة، والطمأنينة، والقوة، والعزة، والرضا، والأمل. ولكل أثر من هذه الآثار شواهد وأخبار تركتها اختصاراً[٢].

الأسباب المعينة على التوكل:

هي أسباب كثيرة منها معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، والثقة بالله تعالى، ومعرفة الإنسان بعجزه وضعفه، والمعرفة بفضل التوكل وأهميته، ولكل سبب من هذه الأسباب شواهد وأخبار تركتها اختصاراً[٣].

عوائق التوكل:

ومنها الجهل بالله تعالى وعظمته، والغرور بالنفس، والركون إلى الخلق، وحب الدنيا والاغترار بها[٤].

---

(١) المصدر السابق: ٧٣.
(٢) انظر المصدر السابق: ٩٥ ـ ١٠٧.
(٣) انظر المصدر السابق: ١٠٨ ـ ١١٦.
(٤) انظر المصدر السابق: ١١٧ ـ ١٢٥.

قواعد وتنبيهات:

١ـ التوكل أعظم العبادات القلبية تعلقاً بالأسماء الحسنى:

«فله تعلق باسم الغفار، والتواب، والعفو، والرؤوف، والرحيم.

وتعلق باسم الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن.

وتعلق باسم المعز، والمذل، والخافض، والرافع، والمانع، من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه، وخفضهم، ومنعهم أسباب النصر.

وتعلق باسم القدرة والإرادة، وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى، ولهذا فسره(١) من فسره بأنه المعرفة بالله»(٢).

٢ـ التوكل على الله تعالى لا ينافي التداوي:

قد جاء في حديث صحيح عن النبي ﷺ في صفة السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم «لا يسترقون، ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون»(٣) فمفهوم هذا الحديث أن التداوي بالرقى والكي ينافي التوكل، وقد وجه عدد من الأئمة هذا الحديث جمعاً بينه وبين الأحاديث المنبئة عن تداوي النبي ﷺ وأمره الصحابة بالتداوي، فمن التوجيهات المقبولة:

أ ـ المراد بالحديث الذين يجتنبون فعل ذلك في الصحة خشية وقوع الداء، وأما من يستعمل الدواء بعد وقوع الداء به فلا.

---

(١) أي: فسر التوكل.

(٢) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٤٣.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الطب: باب من لم يرق: ٧/ ١٧٤.

ب ـ يحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المذكورين في الحديث من غفل عن أحوال الدنيا، وما فيها من الأسباب المعدة لدفع العوارض، فهم لا يعرفون الاكتواء ولا الاسترقاء، وليس لهم ملجأ فيما يعتريهم إلا الدعاء والاعتصام بالله، والرضا بقضائه، فهم غافلون عن طب الأطباء، ورقى الرقاة، ولا يحسنون من ذلك شيئاً.

جـ ـ المراد بترك الرقى والكي الاعتماد على الله في دفع الداء، والرضا بقدره، لا القدح في جواز ذلك؛ لثبوت وقوعه في الأحاديث الصحيحة وعن السلف الصالح، لكن مقام الرضا والتسليم أعلى من تعاطي الأسباب(١).

«وقد ثبتت الرقى من قول النبي ﷺ وفعله وتقريره، وجاءت عنه صيغ في الرقية معروفة، وقد ذكر ابن تيمية أن المنفي(٢) هو الاسترقاء ـ أي طلب الرقية ـ وليس الرقية».

وقد يقال: إن الحديث لا يدل على أن السبعين ألفاً هم وحدهم المتوكلون بل يدل على أنهم صنف متميز، فيؤخذ منه أفضلية سلوكهم لا شرطيته(٣).

٣ـ استخارة الله تبارك وتعالى هيئة من هيئات التوكل وصورة منه:

فإن المستخير يتوكل على الله في تبيين الخير من الشر والنافع من الضار، ويسلم له في ذلك كله، والله أعلم.

---

(١) «التوكل» للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي: ٨٥، بتصرف.

(٢) أي: في قول النبي ﷺ لا يسترقون.

(٣) المصدر السابق: ٨٨.

٤ـ الخوف من الله تعالى

وهو من أنفع العبادات القلبية لِما يؤثره في سلوك المسلم وهمته، وهو «تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال»(١).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٢)، قال تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾(٣).

وقال جل من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾(٤).

«وقالت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا رسول الله ﷺ ـ في هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ ـ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر؟ قال: لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذين يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل»(٥).

---

(١) «إتحاف السادة المتقين»: ١١/ ٣٨٣.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٧٥.

(٣) سورة البقرة: آية ٤٠.

(٤) سورة المؤمنون: آية ٥٧ ـ ٦١.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده وإسناده صحيح انظر «الفتح الرباني»: ١٨/ ٢١٦ ـ ٢١٧.

وقال الحسن البصري في هذه الآية: «عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم. إن المؤمن جمع إحساناً وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمناً»(١).

ـ والخشية والخوف قريبة معانيهما، لكن الخشية أخص من الخوف؛ فإن الخشية للعلماء بالله، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(٢)، فهي خوف مقرون بمعرفة(٣).

وقال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾(٤).

فضل البكاء من خوف الله وخشيته:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع...»(٥).

ـ وكان محمد بن المنكدر (ت ١٣٠) إذا بكى مسح وجهه ولحيته من دموعه ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعاً مسته الدموع(٦).

ـ وقال كعب الأحبار، رحمه الله تعالى: لأن أبكي من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بوزني ذهباً(٧).

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين»: ٢٦٩.
(٢) سورة فاطر: آية ٢٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) سورة ق: آية ٣١ ـ ٣٣.
(٥) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب الزهد: باب ما جاء في فضل البكاء من خشية الله: ٤/ ٥٥٥، وقال فيه: حسن صحيح.
(٦) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٤٩٦.
(٧) المصدر السابق: ١/ ٣٠٢.

ومن أقوال السلف في الخوف:

ـ الخوف سوط الله يُقوِّم به الشاردين عن بابه.

ـ إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها.

ـ صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً.

ـ الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله[١].

ـ ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه[٢].

ـ من خاف الله لم يضره أحد، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد[٣].

ـ ما استعان عبد على دينه بمثل الخشية من الله[٤].

مم يخاف العبد الصالح:

يخاف العبد الصالح على نفسه الكفر والنفاق.

ويخاف على نفسه سوء الخاتمة.

ويخاف على نفسه من المعاصي.

ويخاف الموت قبل التوبة.

ويخاف نقض التوبة ونكث العهد مع الله.

ويخاف الاستدراج بتواتر النعم وكثرتها.

---

(١) الأقوال السابقة منقولة من «تهذيب مدارج السالكين»: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢) «إتحاف السادة المتقين»: ١١/ ٣٨٧.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٦١.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ٥١٣.

ويخاف الاغترار بزخارف الدنيا(١).

صور من خوف النبي ﷺ والصالحين من أمته:

عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»(٢).

روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ: «كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف في وجهه، قالت: يا رسول الله! إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية، فقال: يا عائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»(٣).

وكان ﷺ إذا دخل في الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل(٤).

ـ وعن الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ قال: كان عمر رضي الله عنه يمر بالآية في ورده فتخنقه العبرة فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد يحسبونه مريضاً(٥).

ومر يوماً بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة (والطور) فوقف يسمع، فلما بلغ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ نزل

(١) انظر «إتحاف السادة المتقين»: ١١/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩.
(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق: باب قول النبي ﷺ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً وبكيتم كثيراً: ٧/ ١٢٦.
(٣) أخرجه الإمام البخاري في كتاب التفسير: تفسير سورة الأحقاف: ٦/ ١٦٧.
(٤) أخرجه الإمام الترمذي في الشمائل: باب ما جاء في بكاء رسول الله ﷺ: ٢٥٥، بسند رجاله ثقات.
(٥) «إتحاف السادة المتقين»: ١١/ ٤٩٠.

عن حماره واستند إلى حائط، ومكث زماناً، ورجع إلى منزله فمرض شهراً يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه»[١].

ـ وسلم علي رضي الله عنه يوماً من صلاة الفجر وقد علاه كآبة، فقال وهو يقلب يده: لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً، بين أعينهم أمثال ركب المعزى[٢]، قد باتوا لله سجداً وقياماً، ويتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم، والله كأني بالقوم باتوا غافلين، ثم قام فما رُئي بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم»[٣].

ـ وكان محمد بن المنكدر (ت ١٣٠هـ) قد قام ليلة يصلي فبكى، وكثر بكاؤه حتى فزع له أهله وسألوه فلم يفهموا منه، وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم سلمة بن دينار (ت ١٤٠هـ) فجاء إليه فقال: ما الذي أبكاك؟ قال: مرّت بي آية، قال: ما هي؟ قال: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[٤]، فبكى أبو حازم معه فاشتد بكاؤهما[٥].

وقال عطاء الخفاف: ما لقيت سفيان الثوري إلا باكياً، فقلت: ما شأنك؟.

(١) «إتحاف السادة المتقين»: ١١/ ٤٩٠.
(٢) أي: من خشونتها.
(٣) أي: قتله الخارجي ابن ملجم، وانظر «إتحاف السادة المتقين»: ١١/ ٤٩١.
(٤) سورة الزمر: آية ٤٧.
(٥) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٤٩٥.

قال: أتخوف أن أكون في أم الكتاب شقياً[١].

وقال أبو عبد الرحمن الأسدي: قلت لسعيد بن عبد العزيز (ت ١٦٧هـ): ما هذا البكاء الذي يَعْرِض لك في الصلاة؟

فقال: يا بن أخي! وما سؤالك عن ذلك؟

قلت: لعل الله أن ينفعني به.

فقال: ما قمت إلى الصلاة إلا مَثُلت لي جهنم»[٢].

وقال مالك بن دينار (ت ١٢٧هـ): بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجارية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: يا رب! كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها، يا رب! أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار، وتبكي، فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر.

قال مالك: فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخاً أقول: ثكلت مالكاً أمُّه[٣].

ـ وقال نعيم بن حمّاد (ت ٢٢٩هـ): كان ابن المبارك (ت ١٨١هـ) إذا قرأ كتاب الرّقاق[٤] يصير كأنه ثور منحور، أو بقرة منحورة من البكاء، لا يجترئ أحد منا أن يسأله عن شيء إلا دفعه[٥].

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٥٨٦.
(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦١١.
(٣) «إتحاف السادة المتقين»: ١١/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤.
(٤) وهو الذي يحوي أخبار الجنة والنار.
(٥) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٥٥.

ـ وكان الإمام الترمذي (ت ٢٧٩هـ) قد بكى حتى عمي، وبقي سنين ضريراً[١].

ـ وهذا شيخ الإسلام عبد الله بن وهب المصري الحافظ قد قرئ عليه كتاب من تأليفه وهو «أهوال القيامة» فخر مغشياً عليه، فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد أيام، رحمه الله تعالى[٢].

ـ وهذا الشافعي الإمام كان عند سفيان بن عيينة فروى سفيان حديثاً رقيقاً فغشي على الشافعي[٣].

ـ وهذا علي بن الفضيل بن عياض ـ وكان من كبار الصالحين الثقات ـ مات من آية سمعها، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾[٤].

ـ وكان سفيان الثوري إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول دماً[٥].

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فاحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فو الله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له»[٦].

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٩٦٩.
(٢) المصدر السابق: ٢/ ٧٠٧.
(٣) المصدر السابق: ٢/ ٧٣٤.
(٤) المصدر السابق: ٢/ ٦٦٩، والآية من سورة الأنعام: ٢٧.
(٥) المصدر السابق: ٢/ ٥٨٤.
(٦) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: =

الخوف المحمود المطلوب:

«والخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ـ عز وجل ـ فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط»[(١)]. «والقلب في سيره إلى الله ـ عز وجل ـ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر»[(٢)].

والخوف مرتبط بالرجاء على نحو يفصل إن شاء الله تعالى في العبادة القلبية الآتية.




= باب ما ذكر عن بني إسرائيل: ٤/ ٢١٤ ـ ٢١٥.

(١) «تهذيب مدارج السالكين»: ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق: ٢٧٢.

٥ـ الرجاء

وهو «الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه، وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى»[١].

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج ثوابه.

النوع الثاني: ورجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

النوع الثالث: رجل متماد في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل.

أما النوعان الأولان فمحمودان، وأما الثالث فهو الغرور والتمني والرجاء الكاذب[٢].

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٣].

---

(١) المصدر السابق: ٢٩٧.

(٢) المصدر السابق، بتصرف يسير.

(٣) سورة الكهف: آية ١١٠.

وقد وردت أحاديث كثيرة في ذكر الرجاء وفضله، فمن ذلك ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قال الله تبارك وتعالى: يا بن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا بن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا بن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض[١] خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي..»[٣].

منزلة الرجاء:

«الرجاء من أجل المنازل وأعلاها وأشرفها، وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله... ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح... بل لولا الرجاء لما تحركت بالطاعة»[٤].

وكل مسلم محتاج إلى الرجاء، فهو «دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو

---

(١) ما يقارب ملء الأرض.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ: باب ما جاء في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده: ٥/ ٥٤٨ وقال فيه: حديث غريب، وهو حديث حسن.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد: باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله: ٩/ ١٤٧.

(٤) «تهذيب مدارج السالكين»: ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليه...»[١].

ومن دوافع الرجاء:

١ـ دفع الخوف العظيم، وسيأتي تفصيله.

٢ـ الرجاء يطيب للعبد المسير إلى الله ويحثه عليه.

٣ـ في الرجاء الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ـ تعالى ـ وهذا يوجب للقلب دوام التعلق بذكر الله، ودوام ملاحظة أسمائه وصفاته[٢].

العلاقة بين الرجاء والخوف:

الخوف سوط يؤدب الله ـ تبارك وتعالى ـ به عبده، والرجاء مخفف للخوف حتى لا يخرج بالمؤمن إلى اليأس والقنوط. وقد استحب السلف للمسلم أن يقوي الخوف على الرجاء في حالة الصحة حتى تستقيم أموره ويبتعد عن المعاصي، لكن إذا نزل به الموت فعليه أن يقوي جانب الرجاء في رحمة الله تعالى وعفوه، فعن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول:

«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجلّ»[٣].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو في الموت فقال: «كيف تجدك؟».

---

(١) المصدر السابق: ٣٠٠.

(٢) المصدر السابق: ٣٠٢ ـ ٣٠٤ بتصرف.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الجنة ونعيمها وأهلها: باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت: ٨/ ٣٢٩.

قال: يا رسول الله! إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي.

فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذه المواطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمّنه مما يخاف»[١].

وقال الفُضَيل: الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحاً، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل[٢].

حال بعض السلف عند الاحتضار من الرجاء بعد الخوف:

وحضرت بلالاً رضي الله عنه الوفاة فقالت امرأته: واحزناه، قال بلال: «بل واطَرَباه: غداً نلقى الأحبه، محمداً وحزبه»[٣].

وقد قال معاذ رضي الله عنه عند الاحتضار:

«اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك...»[٤].

وهذا مكحول الشامي ـ من كبار التابعين ـ كان قد غلب عليه الحزن فدخلوا عليه في مرض الموت وهو يضحك، فقيل له في ذلك، فقال: ولم لا أضحك وقد دنا فراق من كنت أحذره، وسرعة القدوم على من كنت أرجوه وأؤمله[٥].

ولما حضر آدمَ بن أبي إياس الوفاةُ ـ وكان شيخ الشام، وإماماً حافظاً قدوة، توفي سنة ٢٢٠ ـ ختم القرآن وهو مُسَجّى، ثم قال:

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب الجنائز: ٣/ ٣١١، وقال فيه: حسن غريب. وقد حسن الحافظ المنذري إسناد هذا الحديث، انظر «الترغيب والترهيب»: ٤/ ٢٦٨.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٦٥.

(٣) «إتحاف السادة المتقين»: ١٤/ ٢٠٨.

(٤) المصدر السابق: ١٤/ ٢٠٤.

(٥) المصدر السابق: ١٤/ ٢١٩.

بحبي لك إلا رفقت بي في هذا المصرع، كنت أؤملك لهذا اليوم، كنت أرجوك، ثم قال: لا إله إلا الله، ثم قضى[(١)].

وفتح عبد الله بن المبارك (ت ١٨١ هـ) عينه عند الوفاة وضحك وقال: «لمثل هذا فليعمل العاملون»[(٢)].

أسير الخطايا عند بابك واقف
على وجل مما أنت به عارفُ
يخاف ذنوباً لم يغب عنك غَيْبُها
ويرجوك فيها فهو راج وخائفُ
ومن ذا الذي يرجو سواك ويتقي
وما لك في فصل القضاء مخالف
فيا سيدي لا تخزني في صحيفتي
إذا نشرت يوم الحساب الصحائفُ

(١) المصدر السابق: ١٤/ ٢٢٢.
(٢) المصدر السابق: ١٤/ ٢١٤.

ذكر بعض الأخلاق الأساسية

وبعد الفراغ من ذكر بعض العبادات القلبية التي عليها مدار العمل، أذكر بعضاً من الأخلاق التي لا بد للعبد الصالح أن يتصف بها، وهي تتعلق بالعبادات القلبية تعلقاً كبيراً إن لم تُعدّ منها:

هذا وإنه لا يُتصور صحة الإخلاص والتوبة والتوكل والخوف والرجاء ـ وهي العبادات القلبية التي ذكرتها آنفاً ـ مع فقد الأخلاق الأساسية مثل الصدق في المعاملة، والتواضع وغيرها؛ إذ صحة العبادات القلبية هي الأساس، والأخلاق السَّنيّة هي البناء المُظهر لقوة الأساس؛ فبقدر ما في قلب العبد من توجه نحو مولاه، يظهر ذلك على سلوكه وأخلاقه ومَمْشاه، وإليك أخي المسلم بعضاً من هذه الأخلاق والسلوكيات الأساسية:

١ـ الصدق

هو خلق المسلم، وعصمة المؤمن، ومن أخذ به نجا في الدنيا والآخرة، ومن تهاون به افتضح في حياته قبل مماته، ووُصم وصمة لا يستطيع الخلاص منها إلى يوم القيامة.

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الصادقين، وأمر المؤمنين بملازمتهم فقال جلّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(١).

وقسم الله ـ سبحانه ـ الناس إلى صادق ومنافق فقال جل وعلا: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾(٢).

والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب... وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبدَ وينجيه من عذابه إلا صدقه، قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٣)، والله ـ تعالى ـ ﴿لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(٤).

---

(١) سورة التوبة: آية ١١٩.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٢٤.

(٣) سورة المائدة: آية ١١٩، وانظر «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٩٦.

(٤) سورة غافر: آية ٢٨.

أقوال في فضيلة الصدق وحقيقته:

ـ هو استواء السر والعلانية.

ـ القول بالحق في مواطن الهلكة.

ـ كلمة الحق عند من تخافه وترجوه.

ـ حقيقة الصدق: أن تصدق في مواطن لا ينجيك منه إلا الكذب[١].

وقيل: ثلاث لا تخطئ الصادق: الحلاوة، والملاحة، والهيبة.

وقيل: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه، أو فضل يعمل فيه[٢].

أحاديث في فضل الصدق وأهميته، والتخويف من الكذب:

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنا زعيم ببيت في رَبَضِ الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»[٣].

وعن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دع ما يَريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة»[٤].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي

---

(١) وذلك نحو قصة كعب بن مالك رضي الله عنه التي سبقت في التوبة.

(٢) انظر «تهذيب مدارج السالكين»: ٤٠١.

(٣) أخرجه الإمام أبو داود في سننه: كتاب الأدب: باب في الحياء.

(٤) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب صفة القيامة: ٤/ ٦٦٨ وقال فيه: حسن صحيح.

إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[١].

وقد حدّث النبي ﷺ عما رآه من عذاب الكذاب فقال: «رأيت الليلة رجلين أتياني... قالا: أمّا الذي رأيته يُشق شِدقُه[٢] فكذاب يحدث بالكذبة فتُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيُصنع به إلى يوم القيامة»[٣].

وهذا الحديث يصدق على من يُروّج الإشاعات الباطلة فتُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[٤].

وعن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للذي يحدث بالحديث ليُضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له»[٥].

أنواع الصدق:

للصدق أنواع عديدة منها:

١ـ صدق في اللسان.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الأدب: باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وما يُنهى عن الكذب: ٨/ ٣٠.

(٢) الشِّدق: جانب الفم، انظر «لسان العرب»: ش د ق.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الجنائز: ٢/ ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الأدب: باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وما يُنهى عن الكذب: ٨/ ٣٠.

(٥) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب الزهد: باب ما جاء من تكلم بالكلمة ليُضحك الناس: ٤/ ٥٥٧، وقال: حديث حسن.

٢ـ صدق في النية والإرادة، ويرجع إلى الإخلاص، وقد سبق الكلام عليه.

٣ـ صدق في العزم على الخير.

٤ـ صدق في العمل الصالح.

٥ـ صدق في تحقيق مقامات الدين كالخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل وحب الله تعالى، وسائر ذلك[١].

صور على الصدق، وبيان أنه نجاة وإن كان في ظاهره الهلاك:

١ـ قصة كعب بن مالك، وقد تقدمت في التوبة.

٢ـ كان لربعي بن حِراش الحافظ الحجة (ت ٨١هـ) ولدان عاصيان على السلطان، فأتى رجل واشٍ إلى الحجاج فقال: إن ربعي بن حراش زعموا لا يكذب، وقد قدم ولداه عاصيين، فبعث إليه الحجاج، فقال: ما فعل ابناك؟ قال: هما في البيت، والله المستعان. فقال الحجاج: هما لك، وأعجبه صدقه[٢].

٣ـ قال أبو عمران الزجاجي:

ماتت أمي فورثت داراً فبعتها بخمسين ديناراً، وخرجت إلى الحج، فلما بلغت آبل استقبلني واحد من القناقنة[٣] وقال: أيش معك؟ فقلت في نفسي: الصدق خير، ثم قلت: خمسون ديناراً، فقال: ناولنيها، فناولته الصرة فعدها فإذا هي خمسون. فقال لي: خذها، فلقد أخذني

(١) انظر «إتحاف السادة المتقين»: ١٣/ ١٣٤ ـ ١٥٨.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣٩٨.

(٣) ظاهر معناها اللص ونحوه، وفي «لسان العرب»: ق ن ن: القنقن والقناقن: البصير بمواضع المياه، ولا يستقيم المعنى بها.

صدقك[١]، ثم نزل عن الدابة فقال: اركبها، فقلت: لا أريد، فقال: لا بد، وألح عليَّ فركبتها، فقال: وأنا على أثرك، فلما كان العام المستقبل لحق بي ولازمني حتى مات[٢].

(١) أي: أثَّر فيَّ صدقك.
(٢) «إتحاف السادة المتقين»: ١٣/ ١٦١.

٢ـ الصبر

وهو من أهم الأخلاق الإسلامية وأوجبها على العبد، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، والصبر خير كله، وهو من أصعب الأمور على العبد وأشقها عليه، ولا يستطيع الصبر إلا من لله به عناية ورحمة.

والصبر في اللغة: الحبس والكف.

وفي الاصطلاح:

هو «حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المفاسد»[١].

بعض آيات في فضل الصبر:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ۖ﴾[٢].

وقال جل من قائل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤].

---

(١) انظر «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٥٣.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٣٧.

(٣) سورة الزمر: آية ١٠.

(٤) سورة الأنفال: آية ٤٦.

وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١).

بعض الأحاديث الواردة في فضل الصبر:

عن صهيب الرومي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»(٢).

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأان أو تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»(٤).

وعن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع»(٥).

أقوال في فضل الصبر ومعناه:

ـ هو تجرع المرارة من غير تعبس.

---

(١) سورة النحل: آية ٩٦.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الزهد: باب أحاديث متفرقة: ١٨/ ٤١٧.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الطهارة: باب الصلاة نور...: ٣/ ٤٥٧.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الزكاة: باب الاستعفاف عن المسألة: ٢/ ١٥١ ـ ١٥٢.

(٥) قال الإمام المنذري في «الترغيب والترهيب»: ٤/ ٢٨٣: رواه أحمد، ورواته ثقات.

ـ وقيل: تعويد النفس الهجوم على المكاره.

ـ وقيل: هو الثبات مع الله، وتلقي بلائه بالرحب والسعة.

ـ وقيل: هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

ومن جميع الأقوال في فضله:

ـ تجرع الصبر، فإن قتلك قتلك شهيداً، وإن أحياك أحياك عزيزاً.

ـ الصبر لله غناء، وبالله بقاء، وفي الله بلاء، ومع الله وفاء، وعن الله جفاء[١].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر»[٢].

وقال سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[٣] قال: «أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء»[٤] أي: أخذوا بالصبر، وهو رأس الأمر.

ـ الصبر على الشدائد ينتج الفوائد[٥].

تصبر أيها العبد اللبيب
لعلك بعد صبرك ما تخيب

(١) الأقوال السابقة منقولة بتصرف يسير من «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٥٤/ ٣٥٥.
(٢) «إتحاف السادة المتقين»: ١١/ ١٣.
(٣) سورة السجدة: آية ٢٤.
(٤) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٥٦.
(٥) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٣٦٣.

وكــل الــحــادثــات إذا تــنــاهــت
يــكــون وراءهــا فــرج قــريــب

صــبــراً جــمــيــلاً مــا أقــرب الــفــرجــا
مــن راقــب الله فــي الأمــور نــجــا

مــن راقــب الله لــم يــنــلــه أذى
وكــان مــنــه الله حــيــث رجــا

كــن حــلــيــمــاً إذا بــلــيــت بــغــيــظ
وصــبــوراً إذا أتــتــك مــصــيــبــة

فــالــلــيــالــي مــن الــزمــان حــبــالــى
مــثــقــلات يــلــدن كــل عــجــيــبــة

أنواع الصبر:

للصبر أنواع هي:

١ـ الصبر على طاعة الله تبارك وتعالى.

٢ـ الصبر عن معصية الله سبحانه.

٣ـ الصبر على الابتلاء.

والنوع الأول والثاني متعلق باختيار العبد، أما النوع الثالث فلا خيار للعبد فيه[١].

ومن أحسن أمثلة الصبر عن المعصية ما كان من صبر نبي الله يوسف عليه السلام؛ فقد «كان شاباً، وداعية الشباب إليها قوية، وعزباً

(١) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٥٣.

ليس له ما يعوضه ويبرد شهوته، وغريباً، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكاً، والمملوك ـ أيضاً ـ ليس وازعه كوازع الحر. والمرأة الجميلة، وذات منصب، وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله»(١).

ـ وقد أمر الله تبارك وتعالى بالصبر الجميل فقال جل من قائل: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا﴾(٢)، ومعنى الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا معه.

تنبيهات:

١ـ الشكوى إلى الله تعالى لا تنافي الصبر:

فإن يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعد بأنه سيصبر صبراً جميلاً فقال الله تعالى قاصاً أمره: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(٣)، ومع ذلك فقد شكا إلى الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٤).

وكذلك نبي الله أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد أخبر الله عنه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾(٥) وقد اشتكى إلى الله تعالى تضميناً

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة المعارج: آية ٥.

(٣) سورة يوسف: آية ١٨.

(٤) سورة يوسف: آية ٨٦.

(٥) سورة ص: آية ٤٤.

وتلميحاً فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[(١)] وإنما ينافي الصبر شكوى الله لا الشكوى إلى الله[(٢)].

وكان حبيب البصري إذا قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ بكى، وقال: واعجباه! أعطى وأثنى، أي هو المعطي للصبر وهو المثني[(٣)] سبحانه وتعالى.

٢ـ الصبر على الطاعات أعظم أنواع الصبر:

إذ للمرء في طاعته ثلاثة أحوال:

أ ـ الصبر قبل الطاعة، وذلك بتصحيح النية والإخلاص.

ب ـ الصبر حال الطاعة كي لا يغفل عن الله أثناءها، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابها وسننها.

ج ـ الصبر بعد الطاعة كي لا يفشي طاعته، ويعرض نفسه للرياء والسمعة والنظر إليه بعين العجب، وهذا مبطل للعمل، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[(٤)].

٣ـ الصبر عند المصيبة:

إنما يكون في الصدمة الأولى حال سماعها، فهذا هو الصبر المحمود عند الابتلاء؛ فعن أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكي على صبي لها، فقال لها: «اتقي الله واصبري»

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٨٣.

(٢) «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٥٦، بتصرف يسير، وانظر «إتحاف السادة المتقين»: ١١/ ٨٥.

(٣) «إتحاف السادة المتقين»: ١١/ ١٣.

(٤) سورة محمد: آية ٣٣. وانظر في هذا «إتحاف السادة المتقين»: ١١/ ٤٣ ـ ٤٤.

فقالت: وما تبالي بمصيبتي، فلما ذهب قيل لها إنه رسول الله ﷺ، فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين، فقالت: يا رسول الله! لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند أول صدمة، أو قال: عند أول الصدمة»[1].

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الجنائز: باب الصبر عند الصدمة الأولى: ٦/ ٥٢٥.

٣ ـ التواضع

هو خلق المؤمنين، ما اتصف به أحد منهم إلا زاده الله عزاً وشرفاً، وأعلى ذكره في الناس، وما فارقه أحد من المسلمين إلا أصابه الهوان، وأبغضه الناس وكرهوه وتجنّبوه.

وسُئل الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ عن التواضع فقال:

يخضع للحق وينقاد له، ويقبله ممن قاله.

وقيل: هو خفض الجناح ولين الجانب[(١)].

والمتكبر محروم من فضل الله ـ تبارك وتعالى ـ وهدايته، قال سبحانه: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾[(٢)].

وقال جلّ من قائل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾[(٣)].

أحاديث في فضل التواضع وذم الكبر:

عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى

---

(١) انظر «تهذيب مدارج السالكين»: ٤٢٩.

(٢) سورة الأعراف: ١٤٦.

(٣) سورة غافر: آية ٣٥.

إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: العز إزاره، والكبر رداؤه، فمن ينازعني عذبته»[٣].

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: التقى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه على المروة فتحدثا، ثم مضى عبد الله بن عمرو وبقي عبد الله بن عمر يبكي، فقال له رجل: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هذا ـ يعني عبد الله بن عمرو ـ زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبه الله لوجهه في النار»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب صفات أهل الجنة وأهل النار في الدنيا: ١٨/ ٣٢٣.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب: باب استحباب العفو والتواضع: ١٦/ ١٠٩.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة: باب تحريم الكبر: ١٦/ ١٣٣.

(٤) قال الحافظ المنذري: رواه الإمام أحمد، ورواته رواة الصحيح: انظر «الترغيب والترهيب»: ٣/ ٥٦٦، وكذلك قال الإمام الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ١/ ١٠٣.

حلة تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يختال في مشيته إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»[(١)].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تعظم في نفسه أو اختال في مشيته لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان»[(٢)].

وقد كان نبينا ﷺ أكثر الناس تواضعاً، وأبعدهم عن الكِبْر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا مَلكٌ، فقال: جبريل، هذا المَلَك ما نزل منذ خُلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد! أرسلني إليك ربك: أفملِكاً نبياً أجعلك أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: بل عبداً رسولاً»[(٣)].

وقد ذكر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ يجلس على الأرض ويعقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير[(٤)].

وما أحسن قول الشاعر:

النـاس مـن جـهـة الـتـمـثـال أكْـفـاء

أبـــــوهـــــمُ آدم والأم حـــــوّاءُ

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب اللباس: باب من جر ثوبه من الخيلاء: ٦/ ١٨٣.

(٢) قال الإمام الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ١/ ١٠٣: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح».

(٣) ذكر الإمام الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ٩/ ٢٢ أن الحديث رواه أحمد ورجالهما رجال الصحيح.

(٤) قال الإمام الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ٩/ ٢٣: «رواه الطبراني وإسناده حسن».

فــإن يــكــن لــهــم فــي أصــلــهــم شــرف
يــفــاخــرون بــه فــالــطــيــن والــمــاء

وكان السلف يحبون التواضع وينهون عن الكبر، فقد قال يوسف بن أسباط الزاهد: «يجزئ قليل الورع والتواضع من كثير الاجتهاد في العمل».

وقال: «غاية التواضع ألا تلقى أحداً إلا رأيت له الفضل عليك»(١).

وقال الإمام الشافعي: «التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام، والتواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة، وقال: أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله».

تنبيهان:

الأول: ليس حب الملبس الحسن والطعام الحسن، وحب الطيبات والتمتع من الدنيا ـ بقدر ـ من الكبر، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

قال: فقال له رجل: إنه يعجبني أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في الكبر، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) بطر الحق: دفعه ورده، وغمص الناس: استصغرهم. أخرجه الإمام الترمذي: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في الكبر، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وقال الإمام الترمذي: «وقال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث: لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان إنما معناه لا يخلد في النار، وهكذا روي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وقد فسر غير واحد من التابعين هذه الآية: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾ قال: من تخلد في النار فقد أخزيته».

الآخر: على العبد المؤمن أن يجتنب الكبر وأسبابه، وهي سبعة:

١ـ العلم. ٢ـ العمل بالطاعات. ٣ـ النسب. ٤ـ الجمال. ٥ـ القوة. ٦ـ المال. ٧ـ كثرة الأنصار[١].

فهذه الصفات السبع محمودة في نفسها، لكن هي سبب مؤد للكبر، فعلى العبد الصالح ألا يغتر بشيء من ذلك فيتكبر وينتفخ، والله المستعان.

(١) انظر لتفصيل هذه المسألة «إتحاف السادة المتقين»: ١٠/ ٢٨٦ وما بعدها.

مجموعة من الأحاديث الواردة

في الحث على التخلق بالأخلاق والصفات الحسنة، والبعد عن الخلال السيئة

١ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً»(١).

٢ـ عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»(٢).

٣ـ عن جرير بن عبد الله البجلي عن النبي ﷺ قال: «من لا يَرحم لا يُرحم»(٣).

٤ـ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٤).

---

(١) أخرجه الإمام البخاري: كتاب الأدب: باب ما ينهي عن التحاسد والتدابر: ٨/ ٢٣.
(٢) المصدر السابق: باب الحياء: ٨/ ١١.
(٣) المصدر السابق: باب رحمة الناس والبهائم: ٨/ ١١.
(٤) المصدر السابق: ٨/ ١٢.

٥ـ عن أبي شريح العدوي ﵁ قال: سمعت أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم النبي ﷺ فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته، قال: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[(١)].

٦ـ عن أبي أيوب الأنصاري ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال: يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[(٢)].

٧ـ عن ابن عمر ـ ﵄ ـ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[(٣)].

٨ ـ عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟».

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا،

---

(١) المصدر السابق: ٨/ ٣٥.

(٢) أخرجه الإمام مسلم: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الهجرة فوق ثلاثة أيام بلا عذر شرعي: ١٦/ ٩١

(٣) المصدر السابق: باب تحريم الظلم: ١٦/ ١٠٤.

وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[١].

٩ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة»؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «ذكرك أخاك بما يكره».

قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟

قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[٢].

١٠ـ عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حرم الرفق حرم الخير»[٣].

١١ـ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»[٤].

١٢ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٥].

---

(١) المصدر السابق: ١٦/ ١٠٥.
(٢) المصدر السابق: باب تحريم الغيبة: ١٦/ ١١٠.
(٣) المصدر السابق: باب فضل الرفق: ١٦/ ١١٢.
(٤) المصدر السابق: باب النهي عن لعن الدواب وغيرها: ١٦/ ١١٤ ـ ١١٥.
(٥) المصدر السابق: باب فضل من يملك نفسه عند الغضب: ١٦/ ١٢٥.

١٣ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس»(١).

١٤ـ عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»(٢).

هذا والله تعالى أعلم وأحكم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

(١) المصدر السابق: باب فضل إزالة الأذى عن الطريق: ١٦/ ١٣١.
(٢) المصدر السابق: باب استحباب طلاقة الوجه والشفاعة فيما ليس بحرام: ١٦/ ١٣٦.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١ ـ «**إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين**»: السيد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥) نشر دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٩هـ.

٢ ـ «**أحكام التوبة**»: الشيخ عبد الغني النابلسي. تحقيق الأستاذ عبد القادر عطا. نشر دار الإصلاح.

٣ ـ «**تاج العروس من جواهر القاموس**»: الشيخ محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥). تحقيق مجموعة من الأساتذة. طبع حكومة الكويت.

٤ ـ «**الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**»: الحافظ المنذري = عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦). تحقيق الأستاذ مصطفى عمارة. نشر دار الفكر. بيروت سنة ١٤٠١هـ.

٥ ـ «**تهذيب مدارج السالكين**»: المدارج للإمام ابن القيم ـ محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١). والتهذيب للأستاذ عبد المنعم العزي. نشر دار المطبوعات الحديثة. جدة.

٦ ـ «**التوكل**»: د. يوسف القرضاوي ـ نشر مكتبة وهبة. القاهرة.

٧ ـ «**التوكل على الله**» الحافظ ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١): عبد الله بن محمد. تحقيق الأستاذ جاسم الفهيد الدوسري. نشر مكتبة دار الأرقم. الكويت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٤هـ.

٨ ـ «**تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**» الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. نشر المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الخامسة. سنة ١٤٠٢هـ.

٩ ـ «**سير أعلام النبلاء**»: الحافظ الذهبي = محمد بن أحمد (ت ٧٤٨) نشر مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الأولى.

١٠ ـ «**سنن الإمام الترمذي**»: تحقيق الأستاذ أحمد شاكر ـ نشر دار إحياء التراث العربي. بيروت.

١١ ـ «**سنن الإمام ابن ماجه**»: تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي. نشر مطبعة دار إحياء الكتب العربية. القاهرة.

١٢ ـ «**صحيح الإمام البخاري**»: نشر دار الجيل. بيروت.

١٣ ـ «**صحيح الإمام ابن خزيمة**»: تحقيق د. محمد الأعظمي.

١٤ ـ «**صحيح الإمام مسلم**»: إعداد مجموعة من الأساتذة.

١٥ ـ «**عون المعبود شرح سنن أبي داود**»: العلامة شمس الحق العظيم آبادي. ضبط الأستاذ عبد الرحمن عثمان. نشر دار الفكر. بيروت الطبعة الثالثة.

١٦ ـ «**الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**»: الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا. نشر دار الشهاب. القاهرة.

١٧ ـ «**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**»: الحافظ نور الدين الهيثمي علي بن أبي بكر (٨٠٧). نشر دار المعارف صادر. بيروت.

١٨ ـ «**معجم مقاييس اللغة**» الإمام أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥). تحقيق وضبط الأستاذ عبد السلام هارون. نشر مكتبة ومطبعة البابي الحلبي. القاهرة. الطبعة الثانية.

١٩ ـ «**نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء**»: التهذيب لمؤلف هذه الرسالة، وكتاب السير للحافظ الذهبي = محمد بن أحمد (ت ٧٤٨) ـ نشر دار الأندلس. جدة. الطبعة الثانية سنة ١٤١٥هـ.

٢٠ ـ «**النية والإخلاص**» د. يوسف القرضاوي ـ نشر مكتبة وهبة. القاهرة. الطبعة الأولى. سنة ١٤١٦هـ.